رواية

سيرة مولع بالهوانم

طلال فيصل

سِيرةُ مُولعٍ بالهَوَانم

سيرةُ مُولعٌ بالهوَانم

رواية

طلال فيصل

الطبعة الأولى ٢٠١٢.

(C) دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف: صلاح المر

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣١٦٣

الترقيم الدولي: 978-977-351-619-1

طلال فيصل

سِيرةُ مُولعٍ بالهَوَانم

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠١٢

أوقفنى موقف التأهب وقال لى، اكتُب، أقول يا رب (وهو أعلم بما أقول) كيف أكتبُ وأنا على ما أنا عليه، يقول اكتُب، أقول يا رب (وهو أعلم بما أقول)، كيف أقتفى أثر الجميلات وأنا حتى الآن لم أدخل فى علاقة، أي علاقة، يقول اكتُب، أقول يا رب، كيف أكتب رواية عن الجميلات وأنا - وأنت أعلم - لم أمارس الجنس حتى الآن ولا مرة واحدة، يقول اكتب، أنت عليك الكتابة وأنا علىّ البلاغ، ألم تقرأ ما كتبه عبدى أينشتين من قبل، الخيال أقوى من المعرفة.

1. مس هالة

فى مديح الهوانم

١

هذه سيرةُ مولعٍ بالهوانم من قديم...

على كوبري الجامعة، أردد بيني وبين نفسي قولك في كتابك الكريم " *قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها*" ، هذا سلوك هوانم، أبتسم، أستدعي الصور التي لا تغيب عني يا ذا الجلال والإكرام،

بلقيس ملكة سبأ، فاتن حمامة، ماجدة الرومي، سمية الألفي، آثار الحكيم، فيفيان لي، جوليا روبرتس، درية شرف الدين، منى الشاذلي، أنغام، حنان ترك، منى زكي، وغيرهنّ كثيرٌ لا أحصي فضلك ولا أحصي ثناء عليك...

لم تفتنّي سعاد حسني مثلا (ولا آبهُ لمعترض، فالسيرة شرطها الصدق). سعاد علي حالين، الطفلة الشقية أو الأنثى المغوية،

الهانم شيء آخر...

أعود بالذاكرة خطوات، البداية ١٩٨٥ وربما قبل ذلك، النهاية لا يعلم ميعادها سواك، أقتفي الأثر، أفكر في الأعوام الثلاثة والثلاثين من عمري التي مرت، وفي قوافل الجميلات العابرات، كلهن عابرات بغير إقامة، سبحانك لك في ذلك حكمة، ولك في ولوعي بالجميلات، بالهوانم، حكمةٌ أخرى ...

يقول اكتُب، ويقول لي، تتذكرُ كل شيء وتنسي "مس هالة"؟

أبتسمُ فى حنين...
أكتُبُ عن مس هالة...

٢

١٩٩١، يدخل صدام الكويت وأدخل أنا المدرسة، يحاول صدام البقاء فى الكويت وأحاول أنا الخروج من المدرسة، ينتهى مسعانا نحن الاثنين بالإخفاق، تنتهى حماقته بالحصار الذى سيصل به بعدها للخروج من حفرة فى بغداد مثل الجرذ بينما تبدأ حماقتى فى التشكل، فى الازدهار.

المشهد الأول فى ذاكرتى للمدرسة، ماما ترتب ملابسى، تُحضر لى أغراضى، الحقيبة الصغيرة - الخالية إلا من كراسة صغيرة وقلم رصاص - تسرح شعرى على جنب، تبتسم فى سعادة وهى تدعو لى بالتوفيق فى أول يوم مدرسة يا حبيبى.

كالعادة، لا أتذكر اين كان أبى يومها، تتولى أمى توصيلى للمدرسة، تقف على الباب وتشير لى بيدها وحين أدرك أنها ستتركنى وتذهب، أنطلق فى البكاء مثل الجحش...

يقف أحد المدرسين أمام المشهد، يكلمنى بهدوء، يمسك يدى، ينهرنى، يطالبنى بأن أكون رجلا ثم ينصرف عنّا وقد استقر فى لاوعيى علاقة ما بين أن تكون ذكرا وأن تكون سخيفا لا تجيد التعامل مع المواقف، أستمر فى البكاء والتمسك بثوب ماما، تظهر مس هالة.

جاكت اسود أنيق، بنطلون جينز، شعرها ملموم للخلف فى بساطة وابتسامتها ساحرة :

- فلنترك ماما قليلا، ما رأيك أن تأتى معى؟

أنسى البكاء، أنسى الوقت، أنسى المدرسة وحتى ماما أنساها. ولا أتذكر غير يدى الصغيرة التى تستقر فى ارتياح بين كفيها الناعمتين، والعينين الصافيتين اللتين أطالعهما...

تقف وتجذبنى من يدى فى رفق:

- هيّا يا بطل.

وننطلق للفصل، ولا أتذكر حتى أن أطلّ من ورائى على أمى، والتى تنصرف مطمئنة على ابنها، الصغير!

٣

الحروف الأبجدية، حكاية سندريلا، حصة القراءة فى الـ **Reading class**، عقابنا حين ننسى ونتحدث بالعربية، من يمكنه أن ينسى مدرسة فيكتوريا كوليج، من يمكنه أن ينسى جلستى الوادعة بجوار مس هالة ، التعريف الذى يتنزل على ذهنى للمرأة الجميلة، للهانم، أحس الدفء المنبعث من أعطافها اللينة. مس هالة - والتى كانت بعدُ صبية فى العشرين - تمنح ثقتها لطفولة الصغير الجالس دائما بجوارها فى حصة القراءة.

I love you Miss Hala -

Me too dear, you are my best student -

وتحبطنى حين تترك حوارنا وتنتبه لباقى الفصل - الذى أشعر به كيانا سخيفا يفسد خلوتنا - قائلة:

Let's start reading, Talal please -

ونبدأ نقرأ، حكايات خيالية مترعة بالجان والأميرات والوحوش والألفاظ الانجليزية الصعبة، على صعوبتها تصبح المدرسة مكانا مفضلا، تستقر فى وجدانى مصدرا للبهجة وترتبط شرطيا برؤية مس هالة.

وذات يوم، يتسرب خبرٌ على مهل بيننا فى الفصل، نشعر بجو من الترقب والسعادة يسيطر على المدرسة، يتبادلون التهانىء، بل وربما تتسرب كلمة تهنئة بالعربية هنا أو هناك فلا ينزعج أحد، يستقر الخبر يقينا.

- مس هالة ستتزوج، ستترك المدرسة وتعود إلى مصر لتجهيز الفرح.

ومن ياترى إذن سيحكى لنا الحكايات؟ ومن التى سأنعم بالشذا جوارها بعد ذلك؟

وحينما أراها أقول فى حسرة لا تلائم طفلا فى السابعة:

- Congratulations, Miss Hala

وتحتضننى فى سعادة دون أن تنتبه للوعة أشجانى،

ويذوق قلبى الصغير للمرة الأولى ألم الفراق.

2. مانوليا

طوبى للعاشقين على حافة الصمت

١

١٩٩٣؛ أنا فى الصف الثالث الابتدائى، طفل شديد النحول والانطوائية، يعود من مدرسته ليجلس أمام التلفزيون ولا يؤدي الواجب إلا باكيا خائفا من صراخ أمه، لا ألعب فى الشارع وليس ثمة أصحاب أو هوايات أو مجلات أو أى شيء، المفترض فى ظل حالة الأدب والصمت هذه أن أكون متفوقا فى الدراسة على الأقل، أبدًا، كنتُ فى حالة شرود دائم، أقصى آمالى ألا يسألنى المدرس فى الفصل فينكشف غبائى وقلة حيلتى أمام سخرية زملائى. كانت الدراسة بالنسبة لى كالطوفان والحرائق والزلازل، عقابا إلهيا باقيا من عهود الأنبياء القدماء الذين يحكي لي عنهم الشيخ الذي أحضره والدي ليحفظني القرآن الكريم (في محاولة بائسة منه لتحقيق التوازن المنشود بين الأصالة والمعاصرة، وبعد أن اكتشف أنه ليس هناك أي علاقة بيني وبين اللغة العربية في المدرسة الإنترناشونال الباهظة التي أدخلني إياها) باختصار، كنت تجسيدا حقيقيا للخيبة بدأوا يتعاملون معها فى البيت بطريقة لا تخلو من حكمة: صراخ وزعيق وشكوى مستمرة منى أمام الجيران - وأمامى بالطبع - ومقارنة دائمة بنماذج جيدة لأطفال الأسرة يتحسرون أننى لم أكن مثلهم (اللهم لا شماتة، لا أزال إلى الآن أتذكر ابن عمتى الذى كانت أمى توبخنى طوال الوقت أننى لست مثله والذى توفى رحمه الله عندي في القصر العيني من

شهور إثر جرعة ترامادول overdose) الخلاصة، الطموح الاقتصادى الموجع الذى تخلّق فى صدور الأسر المصرية فى أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات سقط بكامله على رأسى فلم أحتمل، ازداد سرحانى شراهة وقسوة، صرتُ فى عالم غير العالم، غرقتُ فى صمت طويل، كنت أبكى دون سبب وأتبول على نفسى فى الفراش ليلا خوفا من المدرس والمدرسة والواجب، يبدأ أهلى يفكون قبضتهم عنى قليلا وهم لا يعرفون ما بى، أبدأ أعرف طريق الأطباء وأتعلم كيف أبلع أقراص الدواء الملونة. كأني أسمع الآن ما كان يتناهى لسمعي وقتها قبل أن أروح في النوم، صوت أبى وأمى وهما يتكلمان عنى فى حزن وحيرة، ولا يعرفان ما يمكنهما فعله من أجلي.

٢

يدخل فصلنا زائر جديد، تُشير لها مشرفة الدور بالجلوس جوارى على الديسك فأغرق فى شذا الياسمين، تقول فى اقتضاب: أهلا، أرد فى حيرة، أهلا، أتأملها بحذر فأجد فتاة بديعة التكوين وأعرف لأول مرة أن هناك عيونا خضراء، تُرتب أشياءها كأنها آنسة كبيرة ثم تلتفت لى وتسألنى بثقة، ما اسمك؟ أقول بارتباك ذكر فى حضرة أنثى حقيقية، طلال، ثم أهز رأسى بما يعنى أننى أريد معرفة اسمها فتقول ببساطة: مانوليا، ألعب فى القلم دون أن أجد شيئا أقوله لأدارى به حيرتى، فى النهاية أسأل، ما معنى المانوليا؟ فتقول فى نفاد صبر، اسم وردة، مانوليا اسم وردة. تستمر فى ترتيب أشيائها وأنا أتساءل بينى وبين نفسى، هل لوردة المانوليا نفس هذا العطر الذى يفوح منها؟

٣

مانوليا متفوقة بشكل مثير للغيظ، لا تخطىء أبدا، يسأل المدرس فترفع يدها كل مرة وتجيب الإجابة الصحيحة، دائما الصحيحة. الواجب فى مكانه كل يوم، الدرجات النهائية فى كل الامتحانات بانتظام إلهى. لم يكن من وسيلة حتى أحظى بانتباهها – أنا الخائب الفاشل الذى يتبول على نفسه كل ليلة – إلا أن أصير شخصا آخر – أن يمّحى طلال القديم وكأنه لم يكن، أن أفنى فى المحبوبة ويولد من الرماد شخص جدير بها، لا أذكر أن عزما وتصميما استولى على كما حدث فى تلك الأيام؛ أعدت ترتيب مكتبى وأوراقى، علقت أمامى على الحائط قلما رصاص كنت اقترضته منها ونمتُ – عامدا – عليه، كلما راودنى شيطانى الكسول أوقفت صورتها الماثلة فى ذهنى له بالمرصاد، وكان الأصعب هو أن أخلق الشخصية الجديدة من العدم: كيف أتعلم الكلام بهدوء وبدون اضطراب، أؤدى واجباتى، أصلى الفروض، أتوقف عن عادة الجرى فى الشارع كالأحمق أيا كانت العلة، تبدأ الكوابيس تنسحب من ليلى فى أدب، وبعد فترة سيسألنى المدرس وهو يسلمنى درجات امتحان الشهر – النهائية بالطبع –

– ما سر هذا التطور الرائع فى مستواك، أنا سعيد بك.

وأُلقى على مانوليا نظرة امتنان...

ولكنّ الجميلة ولا هى هنا.

٤

تمرّ فى البئر مياه لا حصر لها، تتغير ملامحى، تنبت لى لحية أُطلقها فى البداية سنة نبوية (في فترة محاولتي أن أكون إخوانيا) ثم

أطلقها أناقة (في فترة محاولتي أن أكون فنانا) ثم أطلقها كسلا من حلقها كل يوم. تظهر فى رأسى ثلاث شعرات بيضاء أراها بوضوح كل يوم وأنا أُسرح شعرى وأصل لآخر سنين نيابتى بكلية الطب ويتم تعييني وقد عرفت التجاعيد طريقها إلى قلبى، الثلاثون عمر كبير فى زماننا هذا، لا يتبقى من متع الحياة غير اللعب على الفيسبوك قليلا فى راحة بين كتابين استعدادا لامتحان الدكتوراه القاسى، لا أدرى لماذا قفزت فى ذاكرتى فجأة كزهرة تطفو فوق الماء فأكتب فى مستطيل البحث على اليمين: مانوليا، ولا نتيجة للبحث فأجرب الإنجليزية، **Manolia**

وأبتسم مع أول نتيجة تظهر لى، ولا يخامرنى شك - رغم مرور كل هذه السنوات - أنها هى، أُضيفها لقائمة الأصدقاء وأنا أبتسم، وأكتب رسالة :

أنا طلال فيصل، كنت معك فى مدرسة فيكتوريا كوليج من سنين، كيف حالك؟

ويأتينى الرد، وتتجسد الذكرى بأعذب الألوان والألحان، أتابع من آن لآخر صورها فى التخرج من الجامعة الأمريكية، صور زفافها وصور فسح شهر العسل، تعليقها على خبر من أخبارى على الفيسبوك، أقارن بين صورها طالبة وصورها وهي أم تحمل طفلتها سعيدة على شاطئ ما في بيروت. أفكر فى الحوار الذى لم يبدأ، كيف يستكمل نفسه افتراضيا بعد عشرة أعوام، من الخيال بدأنا وإلى الخيال نعود فطوبى للعاشقين الواقفين على حافة الصمت .

مانوليا جزء من ذاكرتى لا يعلم به أحد، تشرق روحى كلما طلعت عليها شمسه .

3. تمارا نصر الدين

حكاية من البوسنة والهرسك!

١

هذا ما يؤكده الأخ فرويد، نشاطنا الجنسى كامن فينا من لحظة الميلاد وحتى مفارقة الحياة، هذه هى النظرية باختصار وهكذا يقوم السيد فرويد بتفسير جميع تصرفات الطفل الذى كنا نظنه لا يدرك ولا يميز شيئا (تأمل مثلا مشاهد الرضاعة من الأم ومداعبة الطفل لجسده أو مص إبهامه) الميول الجنسية موجودة فينا وتظهر فى كل شىء وفى كل حين، ولكن السيد فرويد ذاته يحدثنا بعد ذلك عن شىء يدعى "فترة الكمون" أو **latency period**، فترة يتوقف فيها الطفل عن التفكير فى الجنس وفى الجسد وفى المرأة. حسنا، لأعترف الآن فى جلسة المصارحة هذه، أنا لم يكن لدى **latency period**، هذه هى الحقيقة ولا داعى لإنكارها، أظن أنه واضح من الحكايتين السابقتين أننى كنت متحمسا طوال الوقت، حتى فى فترة الابتدائى التى من المفترض أن يكون المرء منا فيها مهذبا وبريئا ونقيا من شوائب الرغبة، فى هذه الفترة كنت طفلا لا يفكر إلا فى قلة الأدب والحاجات التى من المفترض ألا يفكر فيها طفل، وهكذا، وهكذا عندما دخلت فصلنا الطفلة ذات العيون البنفسجية، الطفلة التى لم أر فى حياتى حتى الآن أجمل منها " تمارا نصر الدين " وشاء لها حظها العثر أن تجلس جوار الوحش الكاسر المختبىء فى ثياب طفل الأول الإعدادى والذى هو العبد لله، لم أنتبه للمدرسة التى تطالبنا بالترحيب بزملائنا الجدد من البوسنة والهرسك، لم أهتم بالحجاب الذى على

رأسها، لم توقفنى ملامحها الملائكية المنكسرة التى توقظ القلب ولو كان من حجر، لم أنتبه لشيء، وبمنتهى الحماقة والاندفاع، مثل جحش صغير جائع ألقوه فى حقل برسيم، انحنيت على تمارا نصر الدين، وقبلتها على خدها. طبعا انقلب الفصل رأسا على عقب، المدرس السخيف الذى لا يتفهم النوازع البشرية ظل يوبخنى ويطلب من أشقياء الفصل السكوت والهدوء، المدرس يأمرنى بالخروج من الفصل، ويستدعى ولى أمرى حتى ينظر فى أمرى، والذى جاء بعدها طبعا واعتذر للمدرس وطرقع لى خدودى بكفين معتبرين يدارى بهما بهجته بابنه الذى ورث فحولته وحماسه! ربما لو كنت أكبر قليلا لما كنت بكيت أو أحسست بالخجل كما أحسست ساعتها ولكنى كنت سأقول له ببساطة :

- ماذا أفعل يا مستر، لقد خلقنى الله دون **latency period**.

٢

لآ أفهم حتى الآن على وجه الدقة ما الذى حدث فى أوائل التسعينات لشعب البوسنة، والذى استيقظ ليجد نفسه تحت عمليات إبادة انتهت بتشريده على كافة الدول الإسلامية، على أى حال، قام الفنان الشامل الدكتور معمر القذافى مشكورا أيامها باستضافة عدد كبير من مسلمى البوسنة والهرسك، أذكر أيامها توافُد الكثيرين علينا فى مدرسة فيكتوريا كوليج لنكتشف كم كان هذا الشعب شعبا راقيا وعظيما، ثمرة اجتماع الشرق والغرب فى لحظة حضارية نادرة أنجبت بشرا مدهشين وفيلسوفا عظيما يُدعى على عزت بيجوفتش. كنت لا أزال فى العاشرة أو الثانية عشرة حين قبّلت تمارا ولم أكن قد قرأت كتاب " الإسلام بين

الشرق والغرب " لو كنت قرأت لكنت أدركت ما فاتنى إدراكه وقتها. حين عدت وجلست بجوار تمارا كانت مثل آنسة كبيرة لا طفلة فى الحادية عشرة من العمر، آنسة قادرة على أن تستوعب الطفل الذى بجوارها، تبتسم فى هدوء ابتسامة ساحرة

" نحن لم نتعرف بعد، تمارا نصر الدين، البوسنة"

" طلال فيصل، مصر"

"مصر؟ كم أتمنى زيارة الأهرامات والأزهر الشريف، أخى ذهب ليدرس فى الأزهر، لكنه لن يستطيع إتمام دراسته بسبب الحرب، بأى لغة تتحدثون فى البيت؟ العربية؟ أليس كذلك؟ لا شك أنك تستطيع قراءة القرآن بمفردك؟ لا للأسف، حاولت تعلم اللغة العربية لكنها صعبة وحروفها متشابكة، لكننى أحفظ سورة الفاتحة والناس والفلق"

تبدأ تمارا تُسمّع لى شيئا من سورة الفلق فتأخذ قلبى بحروفها المكسرة ومحاولاتها الجاهدة للحفاظ على الترتيل وعلى قواعد العربية، أعطيها كشكولى لتنقل منه الحصص الفائتة وأذهب للبيت وأنا أحمل فى قلبى وردة كبيرة بيضاء لا شرقية ولا غربية يكاد عطرها يضىء، تُدعى تمارا نصر الدين.

٣

كم هو قصير عمر الورود البيضاء، بعد شهر واحد انتقلت تمارا لمكان آخر — لم أعلم عنه شيئا — وظلت فى بالى ذكرى ماثلة كلما قرأت "قل أعوذ برب الفلق" بسهولة ويسر، أبتسم فى حنين وأنا أتذكر مجاهدتها لتنطقها، كانت تقفز لذاكرتى كلما سمعت خبرا عن محاكمة سلوبودان ميلوسوفيتش — مجرم الصرب — أو كلما وقع بصرى على كتاب عزت

بيجوفتش فى المكتبة، شيئا فشيئا كانت قراءاتى الدينية تضمحل وتتلاشى، وكانت تمارا تذوى فى ذاكرتى كالشعلة الذابلة، ستمر أيام قصيرة وطويلة وستحفر فى الروح ندوبا وكهوفا وعلامات غير قابلة للمحو، ستطالنى يد التغيير كما تطال كل شىء، بعد سنوات كانت دراسة الطب قد سببت لى اكتئابا ومحاولاتى الفاشلة الكتابة لم تُجد نفعا، فشلت ان أكون كاتبا فوجدت الحل وقتها فى الجلوس مع الكتاب على المقاهى والبارات، نتهكم على رؤساء التحرير والروائيين الشباب الآخرين غير الجالسين معنا. نؤكد لبعضنا البعض أن محفوظ كان عظيما وأن مائة عام من العزلة ينبغي أن تقرأ بالإنجليزية وليس بالترجمة العربية الركيكة. عندما سيصبح السؤال الأهم فى حياتى، كيف أتوقف عن شرب الحشيش – مع الاكتفاء بالسجائر فقط – سيكون من العبث أن أفكر فى تمارا أو فى موضوع مثل مسلمى البوسنة والهرسك، مرة واحدة بحثت عليها على الفيسبوك — لعلى أعثر عليها كما عثرت على مانوليا من قبل — ولم أجدها ولكنى وجدت بدلا منها صورة حسناء سلافية أخرى تشعر بحرارة الجو فشعرت أنا بالسعادة، أضفتها بالطبع وأنا أترحم على أيام تمارا وأدعو أن تقتنع الحسناء الفيسبوكية بالقدوم لمصر للتعرف على شمسنا الدافئة ومسلاتنا الفرعونية، الطويلة.

٤

٢٠٠٥، كنت فى ثالثة طب عندما قرأت رواية السيميائى لباولو كويلهو فقررت أن أصبح كاتبا، حدث ذلك بالتوازى مع المولد الذى عاشت فيه مصر باعتباره حراكا ثقافيا، القضاة والاستفتاء والانتخابات والقبض على المدونين وجريدة الدستور والصحفيون الجالسون على مقهى الحرية

فى باب اللوق، إنه بار وليس مقهى، ولكن فات الزمن الذى كانت تسمى فيه الأشياء بأسمائها، وبين الصف الأول إعدادى والجلوس على مقهى/ بار الحرية مسافة طويلة، مسافة يختلط فيها الشك بالحيرة، الصواب بالخطأ والموهبة بافتعال الموهبة، ستقول لنفسك لا بد أن أفهم الحياة، ستؤكد أنك مجرد متفرج حتى تستوعب الدنيا بصورة أعمق، ستغوص قدماك فى الوحل وتتغير ملامحك وتنسى أن تنظر فى المرآة، ستقفز مسافة من الحيرة والفضول وخداع النفس والشك والرغبة، ستجد نفسك فجأة — لا تدرى كيف — جالسا وسط مجموعة من العاطلين والمنحلين يتناقشون فى الأدب ويلعنون التوريث ويشربون البيرة، وفى لحظة ما، ستتوقف عيناك عليها، هى هى ولا شك فى ذلك يا صبى، العينان البنفسجيتان والبشرة الشاهقة البياض، كبرتِ يا تمارا وصار نهداك طائران كبيران يوشكان على الطيران، استدار كل ما كان مستويا يا تمارا، كانت جالسة مع مجموعة من الأجانب الذين نشاهدهم فى مقهى الحرية، كالعادة، يشربون البيرة الرخيصة ويضحكون بصوت عال، الملامح ذات الملامح لكن، ما الذى يمكن أن يكون جاء بها إلى هنا، منحة دراسية؟ تبادل ثقافى ؟ هل زارت الأزهر وهل مازال أخوها يدرس هناك؟ من هذا الشاب الذى يضع يده عليها بأريحية؟، أفكر أن أقوم فأسلم عليها، ربما أستطيع تكوين علاقة معها، أو على الأقل أبدد الانطباع الذى يؤكده أصدقائى المثقفون عنى، أننى دكتور محترم وليس لى فى البنات. أحاول الوقوف لكن تخوننى قدماى، سأظل جالسا ومرهقا وسأؤكد لنفسى وأنا راحل آخر الليل أنها ليست هى، وأن الأوروبيات يقشابهن، شعر أصفر وجسد مكشوف شاهق البياض، وأن جميع الأوروبيات لهن عيون واسعة بنفسجية، أليست البوسنة فى النهاية ورغم كل شىء دولة أوروبية ؟

4. بسنت

من فينا بسنت؟

١

كان عام ٢٠٠٠ عاما بارزا فى مسيرة الكائن البشرى الحائر، تم اعتباره - لن لا يزال يذكر - عاما يفصل بين ألفية ترحل للنسيان وألفية قادمة من المجهول، ثمة خلاف بسيط قام وقتها حول ما إذا كان الاحتفال يجب أن يكون فى ٢٠٠٠ (باعتبار السيد المسيح ولد عام صفر) أم ٢٠٠١ (باعتبار السيد المسيح ولد عام ١ ميلادية) لكن الناس حسمت المسألة ببساطة، واحتفلت. كنا قد عدنا لمصر وقتها، ولا أزال أحتفظ فى ذاكرتى بصورة الاحتفالات الجميلة والمتنوعة التى قامت فى كل بلدان العالم (وعرضت على القناة الثانية أيامها وأثارت اعتراضات المتدينين لما تضمنته من إباحية وعرى وأستغفر الله العظيم)، دعنا من كل ذلك، فعلى المستوى الشخصى كان عام ٢٠٠٠ أكثر أهمية من كل هذا اللغو، كان عام ٢٠٠٠ هو العام الذى دخل فيه السيد طلال فيصل إلى الصف الأول الثانوى، وهكذا يا سادة يا كرام، وهكذا صرت طالبا فى المرحلة الثانوية، مدرسة أحمد لطفى السيد بنين، المساحة، هرم. بالمعيار الأخلاقى لا يمكن أن أنظر برضا لتجارب وذكريات أولى ثانوى لكنى لا أنكر أن حنينا طاغيا يستولى علىّ كلما تذكرت هذا العام فى حياتى، والحنين أصل الحكاية، والحكاية تبدأ هكذا ...

٢

بعد أن عدنا لنستقر فى مصر ثم انطلق والدى للسعودية ونتيجة الفشل المبهر الذى حققه هناك كان على أن أترك مدرستى، مدرسة (زهور الياسمين للغات) - لاحظ دلالة الاسم على المستوى اللغوى - لأنتقل إلى مدرسة لطفى السيد الحكومية بالهرم. لو استخدمنا مصطلحات الفلسفة الإسلامية فسنجد أن الصف الثالث الإعدادى كان يمثل مرحلة إيمان التسليم (أو ما يسميه المعتزلة بإيمان العجائز) وهو ما كان متوازيا مع قصة مانوليا وتمارا، وما جاء بعد ذلك سيمثل مرحلة إيمان التفكر (أو ما يسميه المعتزلة بإيمان التأويل) فترة من الفراغ تفصل بين الإيمانين، فترة مترعة برحيق الشهوة وترن فى سمائها أنغام الإثم والعشق والضلال فى أولى ثانوى، كنت فى مدرسة زهور الياسمين بالهرم وهى مدرسة لغات، بيت زجاجى للكتاكيت البيضاء أقصى ما يمكن أن يحدث فيه من صياعة هو أن تذهب للمدرسة بدون اليونيفورم، منتقلا إلى مدرسة لطفى السيد بنين، مصنع الرجال الذى يضج هادرا بنشيد الذكورة والضياع والعنف، كانت الصدمة الحضارية بين العالمين أكبر من أنتبه إليها، وكنت أبدو مثل زوار الفضاء بين طلبة المدرسة بالبلوفر البيج وشعرى الذى أسرحه على جنب، كنت مجرد طفل قادم إليهم من عالم مدرسة اللغات النقى، هل تجاهلونى؟ هل تم تثبيتى، الاعتداء علىّ؟ كانت كلها احتمالات واردة - بل ومنطقية - لكنها لم تحدث، ربما لأننى كنت أمثل لهم عالما جديدا، عالما معدوم التجارب منزوع الحياة، تتعدد التفسيرات والمبررات لكن الحقيقة تظل واحدة، أن مجموعة أولى خامس قررت أن تتبنانى تحت شعار قاله لى "حمدى حوامدية" بوضوح وبلاغة حين ربّت على كتفى قائلا فى عذوبة: "هاكحرتك"

٣

هذه هى الفترة التى صادقت فيها "حمدى حوامدية" و"على بريزة" و"عزت واخدُه" واكتشفت الكنز السحرى المدعو مدرسة جيهان السادات، كان السيناريو اليومى يكاد يكون ثابتا، تلتقى كل مجموعة منا عند الرصيف الواسع المقابل للمدرسة، نهرج قليلا ونضرب الفول المتين على عربية عزازى على رأس الشارع، نمازح المدرسين وهم داخلون للمدرسة، ربما نلعب شيئا من الكرة أو ننطلق إلى الفيديو جيم (لم تكن سيبرات النت قد انتشرت بعد) ولو كان معنا نقود ننطلق إلى عم حسن وعربية التين الأنيقة التى ينتقل بها فى شوارع الهرم والعمرانية، البعض كان ينطلق إلى مقاهى الثلاثينى وخاتم المرسلين والمغامرين منا انطلقوا لمقهى الشمندورة بفيصل، كما أتذكر الآن واحدا قرر أن يقتحم المجهول فذهب إلى مقاهى وسط البلد، لم نره أسبوعا كاملا وعاد إلينا بعد ذلك وهو يتأبط كتبا غير مفهومة ويتكلم كلاما غريبا عن "جابرييل جارسيا ماركيز" و"الكائن الذى لا تحتمل خفته" وهو ما جعلنا نحذر من الذهاب لمقاهى وسط البلد مكتفين بمقاهى فيصل والهرم وخاتم المرسلين.

٤

ماذا يتبقى لنا إذن، يتبقى الطقس المقدس فى اليوم وهو الانطلاق إلى مدرسة جيهان السادات بنات (بجوار مبنى محافظة الجيزة) والأكثر جرأة منا ينطلقون إلى مدرسة باحثة البادية التجارية، نقف أمام المدرسة قليلا ونحاول أن نخلق مساحة تعاون مشترك بينا وبين البواب، تتحول

الساعة الواحدة والنصف ظهرا إلى ميعاد مع السعادة، تنفتح بوابة السحر الأزرق وتنفجر ماسورة الشارع بالبنات، جيبات رمادية وقمصان بيضاء وحجاب موحد وأجساد يبدأ ماء الحياة يسرى فيها وأعين مفعمة بالرغبة فى اقتحام المجهول، أتذكر فى حنين كيف كنا نبدأ البنات بالكلام أمام محطة المحافظة، "بريزة" مندفع مثل أغلب أبناء برج الثور، دخوله على البنت عنيف غير أن هذه الطريقة تنجح فى أحيان كثيرة، "عزت" يدخل بالطريقة الرومانسية التقليدية: أنا رأيتك من قبل وعيناك فيهما حزن إلخ إلخ، حوامدية (والذى نسميه البرنس) صامت كالعادة — عن وعى عميق — وبمجرد أن يبدأ الكلام يكون قد استولى على الجميع مؤكدا بالتطبيق العملى نظريته (الست تحب الرجل الثقيل)، أنا أصمت أيضا — ولكن عن عدم فهم وقلة حيلة — ها نحن ذاهبون وراجعون، وهانحن جالسون نشرب السجائر ونتبادل أرقام تليفونات بنات تم اقتناصها فى غزوات جيهان السادات المباركة، على سبيل الهدية الأبوية يعطينى حمدى رقم بنت قائلا باختصار دال "ظبّط"، كان جسدى بدأ يضج بهرمونات الذكورة الكامنة فيه بينما يؤكد هو أن الموضوع بسيط، أعطانى كارت الميناتل ووقف ليراقبنى، بمجرد رنين الجرس أغلقت السماعة، أخذ السماعة بسأم وأجرى اتصالا فى غاية السهولة أكّد فيه لواحدة تدعى بسنت أننى معجب بها من فترة وأننى سأنتظرها غدا وأنها لن تتأخر.

٥

فى اليوم التالى كنت أجلس فى كافتريا "كازبلانكا" بترعة الزمر ممسكا الشيشة ومنتظرا واحدة لا أعرف عنها شيئا، خلعت من صديق لزج

كان يريد أن ينتظر معى بسخافة. ضربت شعرى بالجيل الفاخر ووضعت نفسى فى قطعة من الجينز الثمين تليق بذكر على حافة موسم التزاوج، لم تمر دقائق حتى جاءت، للأسف تظهر هنا مع المجىء مشكلة لغوية دقيقة لا يصح تجاهلها، التعبير الصحيح سيكون"جاءتا"، لأننى فوجئت بدلا من البنت التى أنتظرها بدخول بنتين، دخول البنتين علىّ سبب لى ارتباكا يصعب السيطرة عليه، تمالكت نفسى محاولا أن أعرف من هى التى أنتظرها (والتى قام بإقناعها السيد حمدى أننى لا أكف عن التفكير فيها) جلست البنتان وجاء الجرسون ونظر لشعرى وما عليه من جيل بقرف، سألنى عن الطلبات، طلبَت إحداهما مانجو والثانية زبادى بالفراولة، تحسست جيبى بقلق وطلبت واحد شاى فقط لا غير لاعنا حمدى ووالدى والمملكة السعودية وكابنية ميناتل وجنس النسوان كله فى سرى، الوقت يمر فى تهريج ودلع وهزار وملاوعة فى الكلام وإشارات خفية وظاهرة، كلام كلام ولم أعرف من هى حتى الآن، أداور فى الكلام حتى تقذف واحدة منهن بالسؤال فى جبهتى "عندما اتصلت قلت أنك معجب ببسنت من فترة، من فينا بسنت؟"، من واقع خبرتى فى الحياة، صدقنى، لو كنت ابن ناس فلا تحاول تمثيل دور الصايع، هرجت قليلا دون أن أجيب وهى تكرر السؤال، ثلاث مرات تسألنى بسادية وأنا كالفريسة فى الفخ، من فينا بسنت؟ الله يلعنك أنت وبسنت فى ساعة واحدة، كان مالى أنا ومال هذا الكلام لم أجد في آخر الأمر مفرا من الموقف، أشرت لواحدة منهما بمبسم الشيشة دون أنظر إليها، مغمغما فى أسى، أنت بسنت.

٦

طبعا تريدنى أن أنهى لك الحكاية، أبدا، أجهشت أمى بالبكاء لوالدى فى مكالمة دولية أن ابنه – الذى هو العبدلله – سيضيع، والرجل مشكورا اقترض من زملاء غربته ما أعادنى لمدرسة زهور الياسمين، اليونيفورم والسندوتشات وكوب اللبن والانضباط. ضُرب بينى وبين أصحابى فى لطفى السيد جدار من الفصل العنصرى، رجعت ولدا محترما وتفوقت وأصبحت طبيبا بينما أصبحوا هم عاطلين يواظبون على الصلاة فى المسجد أو يتحرشون بالبنات فى شارع جامعة الدول، أما بالنسبة لبسنت فكل ما تبقى منها هو أنى رأيتها مرة ليلة الوقفة فى كايرو مول بالهرم وبصحبتها بنت صغيرة ورجل هو فى الغالب زوجها (ويبدو من شكله أن اسمه شنّاوى) حدقت فيها قليلا والتقت عينانا، استيقظت لدى مشاعر قديمة ما كنت أحسبها لن تعود ذات يوم، فى لحظة تذكرت كل شىء وكأن القبس لم ينطفىء لحظة تحت أطنان الرماد والذكريات والزمن، أما هى فلم يبدُ عليها أنها تذكرتنى أصلا.

5. صفية وآسر صالحين

ما هو المرادف العربى لكلمة: **Mediocrity**

١

المبرر الذى يجعل شخصا ما يحب فتاة تحمل اسم "صفية زينهم بيّومي" ويضعها ضمن فئة الهوانم، هو نفس المبرر الذى يجعله يعتنق الفكر السلفى.

٢

يكون مثيرا للتأمل أن ما يحكم تجربة بكاملها هو أول شخص تقابله فى هذه التجربة .آسر صالحين" من أوائل الناس الذين تعرفت عليهم عند التحاقى بطب قصر العينى، أيام البهجة الأولى والمدرجات المزدحمة والوجوه المفعمة بالحماس والترقب، يجلس بجوارى زميل نحيل ضئيل البنية ذو ملامح طيبة وملابس غالية الثمن لكن ذوقها يؤكد أصوله الريفية، يدور بيننا حوار قصير ويكون أول سؤال يوجهه لى: هل تحفظ القرآن الكريم؟ كنت قد أوشكت على الاقتراب من حفظه كاملا - كما سأنساه بعد ذلك كاملا - وأجيب بنعم، يبدأ يسألنى فى بعض الآيات (والتى تعرف لدى حفظة القرآن بالمتشابهات) ولا تحضرنى الإجابة فيهز رأسه فى أسى قائلا، لماذا تقول إذن أنك تحفظ القرآن؟ لا بد أن تتقن حفظك أكثر من ذلك، ينزع ورقة من الكشكول الذى كان معه ويكتب لى عدة كتب فى المتشابهات أذكر منها كتاب "عون الرحمن فى حفظ القرآن" لأبى ذر القلمونى (والذى سأكتشف بعد ذلك أنه صديق آسر وأنه ليس

صحابيا جليلا كما يبدو من اسمه، ولكنه وكيل نيابة كان يعيش فى القاهرة وقرر اعتزال الدنيا والتفرغ لتحفيظ القرآن فى قرية بأوسيم ولا يزال حيا يسعى بيننا للآن)، فى شكل من أشكال الرد أخرج المصحف من جيبى وأبدأ أسأله لأفاجأ به يجيب كل أسئلتى، كلها، كان حفظه للقرآن قويا ومتقنا بشكل عجيب، يستفزنى الموقف كله فضلا عن انزعاجى من نصائحه وتوجيهه لى ونحن تعارفنا بالكاد من دقائق معدودة، أقرر تجنبه غير أنه كان يأتى دائما ليجلس بجوارى فى المحاضرات ويقف معى كلما يلتقى بى فى الكلية، يهدينى كتبا لمحمد حسان وحسين يعقوب وياسر برهامى ويختبر ما أحفظ من القرآن من آن لآخر ويكرر بين حين وآخر ببراءة "إنى أحبك فى الله" سلمت أمرى لله باعتباره صديقا فرضته الظروف، كما أنه من نوع لا تستطيع مضايقته ولا إحراجه، فضلا عن أنى لم أكن قد جلست مع مثقفي وسط البلد بعد ولم تكن قد انتقلت إلىّ تلك الحساسية من المتدينين التى ينقلونها إليك، وهكذا، وهكذا يمكننا وبشيء من التجاوز أن نقول أننا — أنا والسلفى المخلص آسر صالحين — قد صرنا أصدقاء.

٣

كان آسر شاعريا بشكل يهدم كل أفكارنا النمطية المستمدة من أفلام وحيد حامد عن السلفيين، قال لى ذات مرة:

– على فكرة، أنا أعرفك من قبل أن نلتقى، رأيتك فى مكتب التنسيق يوم كتابة الرغبات وعرفت بمجرد رؤيتك أننا سنصبح أصدقاء.

ظننته يبالغ وقتها ولم أعر كلامه انتباها يذكر، ولكنى - وبعد مرور الوقت - سأكتشف ما كان لدى هذا الفتى من شفافية غريبة، كانت لديه قدرة غريبة على قراءة الأفكار وتمييز الصدق من الكذب فى الكلام ،على مدار الأعوام الثلاثة التى عرفته فيها لم تكن صداقتنا منطقية نوعا ما لاختلافاتنا الكثيرة ولكن ما لم يكن منطقيا أبدا هو استمرار هذه الصداقة، أنا وهو، أنا الذى طفت بين شتى المذاهب والأفكار كالهولندى الطائر، وهو باعتقاده الراسخ والذى لم يتغير للحظة ولم يهتز أبدا فى الفكر السلفى كطريق للنجاة، أتذكره وهو يقول :

- كيف يراودك شك فى الفكر السلفى، كيف يمكننا تطبيق هذا الدين إلا بفهم الصحابة والسلف الصالح.

وعندما بدأتُ فى الحضور بشكل فعلى مع الإخوان (والخلاف بين الإخوان والسلفيين أوضح ما يكون فى قصر العينى) كاد يضربنى من الغيظ. أتذكر تلك الأيام فى حنين وإشفاق وأتذكره وهو يقول منفعلا :

- كيف لا تبصر ما عليه الإخوان من ضلال، ألا يكفى أنهم يحلقون لحيتهم ويخالفون سنة النبى؟!

كانت هذه هى طريقته ومنطقه فى الحكم على الناس والأشياء والمواقف. أتذكر صوته قائلا بحزن حقيقى عندما تركت الإخوان والسلفيين وكل شىء فى نهاية الفرقة الثالثة وبدأت تظهر فى حياتى الروايات والقصص وكتب الشعر واسطوانات الموسيقى :

- أسأل الله أن يهديك، أعطنى فائدة واحدة لهذه القصص التى تقرؤها، إنها مجرد أكاذيب يريد الغرب أن يفتننا بها عن ديننا، أليس القرآن الذى توشك أن تنساه أنفع لك فى الدنيا والآخرة.

السؤال الذى أبحث له عن إجابة، لماذا استمرت علاقتى به كل هذا الوقت محتفظة بقوتها رغم لا منطقيتها، أنا شخصيا كانت لدىّ أسبابى، لكن هو، أىّ أسباب كانت لديه، ولماذا تسامح معى فى كل شىء لا يتسامح مع غيره فيه، لماذا اختصنى بكل هذا الحب بينما لم يكن هو بالنسبة لى أكثر من شخصية مسلية يمكننى أن أكتب عنها ذات يوم.

٤

أشعر بالذنب كلما تذكرت أننى لم أحب آسر بصدق كما أحبنى، وهو بذكائه – أو شفافيته – كان يقول لى مبتسما :

– أنت ليس لك أصحاب يا طلال، ربنا يهديك .

يضاعف الشعور بالذنب أنه لم يعد هناك روائى ولا يحزنون، كل ما تبقى سيرة أكتبها أقتفى فيها أثر الجميلات العابرات والتى كان آسر صالحين شاهدا من شهودها. كان يخاف على خوفا أبويا حقيقيا ويبتهج لدرجاتى التى تأتى دائما أكبر من درجاته، كان يحكى لى باستفاضة عن أسرته وأخبارها، مشاكله مع والده الذى يتعامل مع البنوك "الربوية" وأخيه الذى لا يصلى الفجر بانتظام، يستشيرنى فيما يحيره من شئون الدنيا باعتبارى على حد تعبيره المشفق، من أهل الدنيا الغرور، كنت أنتظر العجائب والغرائب التى يأتى بها وأذهب لأدونها فى مفكرتى بإخلاص يوجعنى الآن كلما أتذكره، يقفز لذهنى الآن وهو ينتظر طويلا الميكروباص أمام قصر العينى، طويلا طويلا حيث أنه لم يكن يركب مع سائق يشغل الأغانى أو يشعل سيجارة ولا يجلس بجوار فتاة – خاصة لو غير محجبة – وخاصمنى طويلا عندما قلت له ذات مرة أنه ينتظر

ميكروباص سائقه عثمان بن عفان، أتذكر ولعه بالشعر العربى القديم وإكثاره من الاستشهاد بأبيات الحماس والجهاد، أتذكر الهوس الذى لازمه فترة عندما قرأ فى مجلة ما – لعلها مجلة التوحيد – برأى فيه تحريم لفن الخط العربى والذى كان يحبه بشدة، ظل يسأل فترة طويلة حول هذه المسألة ولم يرتح إلا عندما قرأ رأى الشيخ الألبانى بأن فن الخط العربى جائز شرعا، هذا هو صديقى – والذى لم يكن قد صار بعد صديقى – آسر صالحين، آلاف التفاصيل الصغيرة التى لا تقال، آسر الذى لم يكن يمثل لى أى شىء، أى شىء، لدرجة أنى لم ألاحظ لفترة طويلة تغيره، شروده الدائم، أخذه للكتب والروايات التى أقرأ فيها وتقليبه فيها وكأنه يبحث عن شىء ما يخصه، أسئلته الغريبة والمختلفة حول العلاقات العاطفية، لم يكن آسر بالنسبة لى شخصا مهما لذا كان مضطرا أن يقول لى بصراحة ونحن نمشى على كوبرى الجامعة ذات مرة وهو ينظر فى الأرض ويعبث فى لحيته الخفيفة :

-أنا أحب صفية، صفية التى معك فى السكشن.

٥

صفية بنت عادية بشكل غير عادى، هل تعرف البنت التى تحتفظ فى حقيبتها بلبان سمارة وتضع كلمة إن شاء الله فى آخر كل جملة ولا تضحك بصوت عال لأن هذا ممكن أن يعطى انطباعا سيئا عنها يؤخر من فرصتها فى الزواج، البنت التى إذا تكلمت معك لا بد أن تسألك عن برجك والتى تسكن فى العمرانية وتقول أنها تسكن فى الهرم والتى تجلس بجوارك فى الميكروباص فتضع – لسبب لا يمكننى تخمينه –

حقيقتها بينها وبينك، هل تعرف هذه النوعية من البنات، النموذج الذى يمكن وصفه بفرط العادية، ليست جميلة ولا قبيحة، لا طويلة ولا قصيرة، لا متفوقة ولا بليدة، لا ذكية ولا غبية، ليست أى شىء، كانت تجلس صامتة فى السكشن دائما وليس لها أصدقاء وطوال سنين الدراسة لم أرها تكلم أحدا تقريبا، ربما تجلس مع البنات فى الخلف ولا أعرف عما يمكن أن يدور بينهن من حوار سخيف، لا أعرف ما الذى يمكن أن يكون لفت انتباهه فيها، لا شىء مطلقا، أسأله بسخرية لا أفلح فى مداراتها " سبحان من خلقك وخلق مزاجك، لم تكتف بكونك سلفيا حتى جمعت إليه حب صفية" ويجيبنى بصوت خفيض منكسر:

– الله يسامحك، كيف تكون كاتبا وتسخر من مشاعرى البريئة.

كان عاشقا بما تعنيه الكلمة من معان وما يضايقنى أن التجربة بكاملها أخذت فى وعيي طابع الغرائب والطرائف، مثلا، بدأ يستمع ويبكى من التأثر إلى مشارى راشد (باعتباره المصدر الفنى المسموح به فى خضم الحرامات التى كانت تحيط حياته من كل جانب) بدأت أشعار الغزل تزاحم فى حياته أشعار الحماسة والجهاد – وإن لم يخل من تأنيب ضمير لذلك – كما عاد لهوايته الأثيرة الخط العربى، ولا أزال أحتفظ بلوحة كتبها ذات مرة فى خضم هذه التجربة خط عليها " وزوجناهم بحور عين" لن أسامح نفسى ما حييت أنى أعطيته قصيدة "طوق الياسمين" على أنها من تأليفى وكنت أكتم ضحكى وهو يرددها فى وتأثر طوال الوقت وهو لا يعرف أنها لنزار قبانى الذى يلعنه مشايخه صباح مساء، كان عاشقا يستثير فىّ مشاعر الرثاء وهو متحير بين مسئولى أسرة النور السلفية فى الكلية والذين يعارضون ارتباطه منها – أولا لأنها ليست

ملتزمة بالقدر الكافى وثانيا لأن تجربة الحياة أكدت أن الحب مجرد وهم ينشأ من احتياج الفرد للجنس الآخر، وبين والده الذى يعارض فكرة ارتباطه أصلا وهو بعد لا يزال فى سنين الدراسة، ثم جاءت صدمته كبيرة عندما علم بعد شهرين أنها خطبت لأحد أعضاء هيئة التدريس بالكلية (أدركت بعد خطبة الآنسة الدكتورة صفية أن فرط عاديتها هذا كان عنصر جذب للكثيرين من دفعتنا وهو أمر يحتاج دراسة مفصلة حول مزاج الرجل المصرى فى الزواج من المرأة معدومة المزايا)، قلت له مواسيا وأنا أتذكر فى شجن نفس الموقف الذى تكرر معى مرتين :

– نحن يا صديقى فصيلة من الرجال كلما عشقوا تزوجت محبوبته غيره، ألا يعنى ذلك على الأقل أن ذوقنا جيد؟

كان الخبر بالنسبة لآسر مفاجئا وقاسيا وموجعا، أما ما كان موجعا بالفعل هو أنه لم يجد الوقت ليحزن كما ينبغى.

٦

يخلط الكثيرون بين التيارات السلفية المختلفة، حتى الدارسون المتخصصون يخلطون بين القطبية وسلفية اسكندرية والسلفية البيضاء، وبين الألبانية وقوصية مصر، أستطيع تفهم هذا الخلط من الدارسين والباحثين فى غمرة سبوبة التحليل السياسى التى تجتاح البلد لكن الغريب أن هذا الخلط يحدث أحيانا من أمن الدولة، نعم، أمن الدولة الذى نظن أنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، تجلى هذا كما ينبغى فى نوعية الناس الذين قبض عليهم بعد تفجيرات عبدالمنعم رياض الشهيرة فى ٢٠٠٥ ومنهم أسرة النور فى القصر العينى – ياللسخرية –

لأن القصر العينى قريب من التحرير، الجميع يؤكدون أنه لم يحدث اعتداء بدنى عليهم ولم يتجاوز الأمر سؤالين وعدة ساعات فى مكان ما لا يعلمه أحد أما بالنسبة لآسر فتختلف الروايات، فالبعض يؤكد أن حوارا منفعلا دار بينه وبين الضابط الذى ضربه قلمين لم يحتملهم جسده الضعيف وبنيته الهزيلة، والبعض يقول أن أحدا لم يعتد عليه بالضرب لكنهم وجهوا له كلاما موجعا لم تحتمله نفسيته الهشة، يقال أنه ظل يبكى طوال الليل. لم تسمح لى علاقتى السيئة بباقى السلفيين فى الكلية بمعرفة أى تفاصيل أخرى، أيا كان ما حدث، لم يمض يومين على عودته لبيته من الاستدعاء حتى توفى آسر صالحين.

٧

تم تعيين صفية بعد ذلك معى في القصر العيني – بواسطة من زوجها – ولا أزال كلما رأيتها ورأيت فرط عاديتها أتذكره وأتذكر الزمن المُر الذى حُكم على جيلنا أن يعيشه. رحم الله صديقى الساذج النقى آسر صالحين وتغمده برحمته وأسكنه فسيح جناته، اللهم آمين.

6. لا أعرف اسمها

حكاية من تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة

١

نمرة تليفونك كام ،
ادينى النمرة قوام ،
حاشغل لك بالك ليلة ،
ياللى شغلتنى أيام .
"من أغنية قديمة لأنغام"

٢

حكايتى معها استمرت سنة وربع ساعة، فى الحقيقة علاقتها بى هى التى استغرقت سنة كاملة وربع الساعة بينما علاقتى أنا بها استغرقت ربع ساعة فقط. أشعر أننى ركيك وأن عباراتى مفككة، فلآخذ نفسا عميقا وأحكى الحكاية من البداية، من الأول خالص، فى البدء كان حسن البنا وكانت جماعة الإخوان المسلمين، طريق طويل ودروب متشعبة لا داعى لنثقل بها هذا النص، حكايتنا تبدأ مع مجىء عمر التلمسانى مرشدا عاما لجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٧٤، الرجل الذى يكتب عن نفسه فى مذكراته قائلا "كنت بحبوحا أحب النكتة البريئة، والقفشة الرقيقة، متسامحا مع كل من أساء إليّ بالقول والعمل" التلمسانى يأتى مرشدا للجماعة فى اللحظة التاريخية المناسبة تماما عندما يكون السادات قد قرر أن يخرج الإسلاميين من السجون (ليبرالية منه أو اقتناعا بالفكر

الإسلامى أو نكاية فى الناصريين والشيوعيين، الله أعلم) ويقرر الإخوان أن يندمجوا فى المجتمع، ينبذون فكر الستينات وصلابة وكبرياء رجال الستينات (تذكر سيد قطب مثلا ورفضه القاطع لأى مساومة أو نقاش وذهابه للمشنقة مثل أبطال الأساطير) يتركون منطقهم القديم الذى يرى الحق واضحا جليا ويريد أن يهدى المجتمع إليه بالذوق أو بالعافية، ثمة طريق آخر، طريق ناعم متسرب لين لا يقول فيه للمخطىء أنت مخطىء، لكن لينضم إلينا أولا وسيصلح هو نفسه بنفسه، بالراحة، بهدوء وفى حرص ألا يتركهم، يعبر الإخوان مرحلة الصدام مع السلطة والمجتمع إلى تجنب السلطة والتصالح مع المجتمع. سيترتب على ذلك التغير فى سياسة الإخوان عدة أمور أولها انفصال الجماعة الإسلامية عن الإخوان، الجماعة التى كانت تسيطر على الجامعة فى النصف الثانى من السبعينات وأوائل الثمانينات (والتى ستتفتت بعد ذلك إلى سلفيين وجهاد وعدة أشياء أخرى) وينتهى الطريق الذى اختاره الإخوان فى هذه الفترة باجتهاد من التلمسانى ودعم من السادات (ومبارك حتى حين) إلى عمرو خالد وخالد الجندى ومصطفى حسنى ومجموعة أخرى من البشر لم يسعدنى الحظ بالتعرف عليهم. سياسة جديدة شعارها: نحن نصلك أينما كنت، سنصل إليك فى المسجد والمدرسة والجامعة والمستوصف الخيرى وملاعب الكرة والبرلمان حين تتاح الفرصة، نصلك بدورات التنمية الذاتية ومشاريع خدمة المجتمع ومحاضرات الإعجاز العلمى. وهكذا، وهكذا يصبح لدينا جيل كامل نشا فى ظل تغير قام به رجل خارق فى مسيرة الإخوان المسلمين، جيل ولد فى منتصف الثمانينات والذى أزعم أنه –

بكامله – لم ينج واحد منه من تجربة الإخوان بشكل أو بآخر، رفضا أو انتماءا أو حتى تفكيرا سطحيا مشوشا.

ما علاقة هذه المقدمة الأكاديمية الثقيلة بقصتى مع الفتاة التى لا أعرف اسمها حتى الآن؟

٣

لم يكن من الممكن أن تنضم أنت للإخوان دون هذا التغير الجوهرى فى مسيرتهم الفكرية، تلتقى بالأستاذ "م" وأنت فى الإعدادية ويضع البذرة الأولى، تذاكر قليلا وتقرأ قليلا وتمر أعوام، تتعرف على آسر صالحين وتدخل عامك الثانى بكلية الطب وقد اقتنعت تماما بحتمية الحل الإسلامى، تقف على أرض اليقين الصلبة وقد غمرت الطمأنينة روحك، إنى أراك من هنا بوضوح، تسير فى طرقات القصر العينى الواسعة مرتديا البنطلون الجينز الذى تم تقصيره ليكون على السنة النبوية، لحيتك خفيفة لم يكتمل نموها بعد وقميصك كلاسيك نصف كم (تتركه خارج البنطلون ليدارى نحولك المزرى) ولو أمعنت النظر ستجد السواك منتصبا فى شموخ فى جيب القميص النصف كم السالف ذكره، تحمل كتاب الكيمياء الحيوية (مشكلة المشاكل فى ثانية طب) وكتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" لأبى الحسن الندوى (مشكلة المشاكل فى أمن الدولة) وتقف عند الشجرة المميزة أمام مركز المؤتمرات (والتى كانت أيامها المقر الرسمى لطلاب الإخوان المسلمين) فترة الاطمئنان والأذان فى المسجد وصلاة الجماعة والبكاء فى صلاة التراويح والمطويات التى تحض على تشكيلة متنوعة من أفعال الخير، هذا أنت أنت، تقرأ سورة الأنفال وأنت

ذاهب لمظاهرة إخوانية وتستمع لمسئول لجنة الجامعة بعيون دامعة وهو يقول (لو هيأ الله لدولة الخلافة أن تقوم سيكون من إخوان مصر، ولو قامت من مصر سيكون من لجنة العمل الطلابى، ولو قامت من لجنة العمل الطلابى سيكون من جامعة القاهرة، ولو قامت من جامعة القاهرة سيكون من القصر العينى، قيام دولة الخلافة مسؤوليتنا يا دكاترة) فلماذا تنكر وجهك القديم ولماذا تتعجب حين تتذكر قصتك مع الآنسة التى لا تعرف اسمها حتى الآن.

٤

يطلقون على كلية الآداب اسم كلية الكعب العالى، أظن – وآثم إذ لا أظن – أن الاسم يليق أكثر بكلية الطب، القصر العينى هو كلية بنات أساسا بطبيعة الحال، عدد الأولاد فيها قليل، أرى بوضوح منظر المدرج من فوق وهو مثخن بعشرات الدوائر الملونة، الإيشاربات التى تصطف فى سطور المدرج كعصافير لا تجرؤ على الطيران، أدور من وراء المدرج وأنزل للمنصة بعد انتهاء الدكتور من المحاضرة، أستأذنه وأتناول الميكروفون وأبدأ فى إلقاء كلمة، يخرج صوتى قويا واثقا، أوزع نظراتى بالتساوى على الإيشاربات الموزعة أمامى، أتراجع خطوة وأحرك ذراعى ويتهدج صوتى ويدب فى المستمعين الحماس، يطفو على سطح الوعى إحساسى بجاذبيتى الإسلامية لدى البنات فى المدرج، أستغفر الله وأسأله الثبات والصدق، أستحضر النية، وانتهى من كلمتى وأخرج ولكن سحر المنصة لا يخرج منى تماما، أشعر بانتمائى لفكرة ولدت يوم تجلى جبريل عليه السلام للنبى محمد فى غار حراء، أكون مهذبا، لبقا، لطيفا، أكون بارا بأمى،

أستمع إلى عمرو خالد وأقرأ للقرضاوى وأصلى وراء خالد أبو شادى فى جامع الرواس، أذاكر بجدية واحد من رهبان الليل وفرسان النهار (للأمانة فضل هذه الفترة على كبير لأنها تقريبا الفترة الوحيدة التى حصلت فيها على درجات كبيرة كانت سبب تعيينى فى الكلية) وأستمر فى إلقاء الكلمة فى المدرج، أدخل وأخرج، أدخل وأنا طلال فيصل وأخرج منه عريسا مثاليا للبنت المصرية، وحين أخلو لنفسى فى السرير قبل النوم لا أكون وحدى تماما، تؤنسنى فى وحشة العتمة عيون الجميلات التى كانت تحدق فى طوال الكلمة التى ألقيها فى المدرج، وتروح عينى فى النوم وأنا مبتسم أستغفر الله العظيم وأسأله الإخلاص فى القول والعمل.

٥

رقم غريب يواصل الرنين على هاتفى المحمول، الرقم لا أعرفه ولا أهتم ولا يمكن أن أهتم، والرقم يواصل الرنين المتقطع ولا يتوقف، كل يومين أو كل ثلاثة أيام رنة، رنة مرتبكة، أو قصيرة، ورنة تطول حينا أو تصل لرنتين بعدها بدأ الرنين يتطور إلى مرحلة الرنين المتقاطع مع الرسائل، رسائل ساذجة من نوعية (قلبى الطير المهاجر وانت العش السعيد) أو (أفكر انك تفكر إن أنا مابفكرش فيك الفكرة دي بتخليني أفكر انك بتفكر فيك) ثم تتطور إلى رسائل لا تدع مجالا للشك أننى أنا المقصود، أنا بذاتى وصفاتى. فى البداية ظننته شخصا سخيفا يمزح أو أن رقمى اختلط على أحد مع رقم آخر، الرسائل أقرؤها ويتملكنى كبرياء الذكر الغبى حين يشعر أن أنثى تطارده أو شعور الولد الصالح الذى تراوده فتنة الدنيا عن نفسه، أمعن فى تجاهل هذه البنت العجيبة التى تمارس

الحب الافتراضى طوال هذه الفترة مع شخص لا يعرف أساس من هى، أتسلى بالرسائل حينا ثم أنشغل عنها، يصيب الروح ما يصيبها وتبدأ السماء فى الابتعاد، يمر شهران والرسائل لا تزال مستمرة، أتشاجر مع أحد الإخوة فى المسجد وأبتعد قليلا، تمر ستة شهور والرسائل لا تزال، أمر بأزمة نفسية حادة وأؤجل الدخول لامتحان الكيمياء الحيوية، عشرة شهور والرسائل هى الرسائل ، أقرأ رواية السيميائى لباولو كويلو وأقرر ترك الطب والعمل الإسلامى والتفرغ لشىء ما لا اعلمه بعد فتنفجر أمى فى البكاء (لعلك لاحظت أن أمى تنفجر فى البكاء كثيرا فى هذه السيرة؟)، تتغير أشياء وأشياء وأعبر بحدة من اطمئنان الأسطورة إلى عذاب المنطق، لا يصبح السؤال الأهم فى حياتى "ماذا أفعل" بقدر ما يصبح "لماذا أفعل"، بعد سنة كاملة تصلنى رسالة اعترافية ذات لهجة متوترة – وقد بدأ شعورى يميل نحو الأسى وتأنيب الضمير – مفادها أن ثمة عريس قادم وأنها رأت أنه من واجبى أن أعرف، رسالة تؤكد أنها تحبنى وأننى – ياللثقة العمياء – أحبها! أدركت أننى أمام مأساة حقيقية تتطلب تعاملا حذرا وتدخلا حاسما لإنهاء الموقف. على خلاف المتوقع، عندما نكون مأزومين نفسيا نكون أكثر إحساسا وقدرة على التعامل مع المأزومين مثلنا، ربما لأن وجودهم فى الحياة يعطينا ثقة أننا لسنا ضائعين وحدنا، ظل الغريب للغريب عباءة كما يقول درويش؛ فأقرر أن أقابلها حتى يتوقف هذا العبث دون أن أسبب لها أى أزمة، لنخرج من هذا الخيال لأرض الواقع دون أن نخسر شخصا لم نتشرف بمعرفته بعد، اتصلت بها وكل ما أريده هو أن أنهى علاقة لم تبدأ من الأساس دون أن تدرك المسكينة أنى حتى لا أعرف اسمها، يرد على صوت أنثوى واثق، وعليكم

السلام ورحمة الله وبركاته، الصوت يقول أنها كانت متأكدة أننى سأتصل، أستجمع تركيزى حتى لا أرتكب أى خطأ، لهجتها ونبرة صوتها تليق بامرأة اعترف لها رجل أنه يحبها، صوتها يأتينى نصف مبتهج وأنا لا أعرف ماذا أفعل، وتطلب بإصرار أن نلتقى، ونلتقى.

٦

أمام قسم التشريح، الناحية الأخرى، بجوار الكافتريا الكبيرة، عند المقاعد التى تصطف فى وداعة تحت أشجار الفيكاس الضخمة، على أى حال إذا لم تكن من أبناء القصر العينى فلن تعنى لك هذه التفاصيل شيئا! كنا جالسين والذى يرانا من بعيد يظننا عاشقين يتعاتبان، البنت قمحية ويمكن بشىء من التجاوز أن نصفها بالجمال، مهذبة تتكلم بهدوء يتناقض دراميا مع ما قد نتصوره عن عاشق مهزوم على البعد، البنت — ولا أعرف لها اسما بعد – تتكلم بثقة تجعلنى أكاد أشك فى نفسى، الحب عن بعد يليق بفتاة ساذجة ولكنها لا تبدو كذلك، حجاب واسع وأنيق ورداء واسع ضيقته قليلا عند الصدر، تكلمت هى قليلا وقلت أنا كلاما ساذجا عن ما يتصوره الإنسان وأننا قد نتصور أشياء وندعمها بتفاصيل كثيرة بينما هى فى نهاية الأمر مجرد خيال. هزت رأسها فى تفهم، كنا فى جلستنا طفلين مهذبين يحيط بأحدهما الحذر ويضيق بالثانى الكتمان، أعتذر عن خطأ غير مقصود فتعتذر عن إزعاجى هذه المدة، تصف نفسها بالسخافة وتضحك فأطلب منها ألا تقول ذلك، يبدأ البوح الذى يليق بالعشاق اليائسين ،أعرف أن القصة بدأت عندما كنت ألقى كلمة عن الحل الإسلامى فى أحد المدرجات، ويبدو — بحسب كلامها – أنها وقفت

وناقشتنى وأننى ناقشتها مدة طويلة - كما تؤكد - وأنا تحاورت معها، أسير كالبهلون على خيط الكلمات الرفيع، ربما أكون قد أخطأت ووصلك شيء منى لم أقصده، أرجو ألا أكون سببت أى إساءة، ثرثرة تقطعها فراغات من الصمت الأسود، نتكلم ونتكلم ثم تسرح منى للحظة قائلة "ثمة شيء غريب، أنا أشعر وكأنك لأول مرة ترانى فى حياتك" ثم تنظر لى وتقول بسرعة "لا لا، بالطبع لا"، تستكمل الحوار بسرعة كأنها تطرد الفكرة من رأسها، تقول لى أننى شخص محترم وأنها سعيدة بهذه الصداقة، تؤكد أنها ستعتبر نفسها كسبت أخا خصوصا أنها ليس لها إخوة وأنها تعيش وحدها مع جدتها بعد سفر والديها للكويت. تكلمت هى كثيرا وابتسمتُ أنا كثيرا وأكدت لى ونحن ننصرف أنها ستواصل الاتصال بى فأكدت لها أن ذلك سيسعدنى، ينتهى الكلام بعد ربع ساعة وأراقبها وهى تبتعد، نفترق عاشقة تجرعت تعاستها كاملة ومعشوقا منهكا لا يشعر بشيء، أى شيء، رويدا رويدا، أراقبها وجسدها القصير الممتلىء يبتعد ويتوارى عن عينى واسأل نفسى، متى ستخونها قواها وتقف لتبكى بجوار حائط قديم.

٧

حكايتى مع الآنسة التى لا أعرف اسمها جزء مهم من تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة، لكن المؤرخين جميعهم - للأسف - يتجاهلونه عندما يجلسون لكتابة تاريخ هذه الحركة.

7. حكاية هامشية تماما

ذكر ما جرى للجميلات الثلاث أمام مستشفى أبو الريش

التوقيت هو هو التوقيت الخاطىء تماما لكنى أختلس نظرة للجميلات الواقفات، الثانية ظهرا أحد أيام يونيو ٢٠٠٨، قبلها بشهور قليلة كنت بدأت فترة التدريب (الامتياز) بالقصر العينى ثم انتدبت أربعة أشهر للعمل بمستشفى أبو الريش. أوقع بإمضاء الحضور فى الثامنة صباحا دون أن أمثل أى فائدة حقيقية لأحد نظرا لأنى لم أكن – بعد سبع سنوات من دراسة الطب – قد تعلمت أى شىء، أقوم ببعض الوظائف القذرة، المُتعارف عليها بين الأطباء باسم **Dirty work**: نقل أكياس الدم أو ترتيب ملفات المرضى أو إعطاء الحقن الوريدية ولا شىء غير ذلك، أنتظر ميعاد الانصراف فى الثانية ظهرا لأقف نفس الوقف كل يوم أمام مستشفى أبو الريش منتظرا الميكروباص سيدة – جيزة، الشمس ذات حرارة انتقامية والوجوه – أغلبها لأطباء أو طلبة القصر العينى – حولى مكفهرة والسائقون يتفننون فى مهارات القيادة بحيث تجرى متوسلا وراء الميكروباص، جيزة يا اسطى، يهرب منك أو يشير لك بتأفف أو يقول بكبرياء إلهى، مش طالعة والله، أهرب من التفكير فى كل شىء وأختلس نظرة ثانية للفتيات الثلاث، الهانمات الصغيرات الثلاث، تفاصيل صغيرة تنعش قلبى فى قيظ يونيو، الانهماك فى ترتيب النقود، تقاسمها بينهن، المناقشة المكتومة خوفا من ارتفاع الصوت، لا أتعاطف كثيرا مع طالبات الطب – وسأفصل ذلك فى حكاية الآنسة آ – ولكنى أشعر بالحنو تجاه أولئك الهوانم الصغيرات الجميلات،

أجساد لم يجاوز فورانها حد الأدب بعد، العلبة الخشبية الثقيلة التى تحملها واحدة منهن هى الميكرسكوب، العلامة المميزة لطالب ثالثة طب، هل ستحتمل هذه الأجساد الهشة الانتظار حتى تصل لبيوتها، أنا شخصيا أشعر أنى سأخسر دينى قبل ان أصل لميدان الجيزة، يا رب يا كريم، أعود لأقف فى الظل حيث ألمح شابين لا يتجاوزان العشرين قادمين من جهة قصر العينى، أحدهما يعطى لحياته الموسيقى التصويرية المطلوبة فيشغل على الموبايل أحد أغانى طارق الشيخ الشعبية، يشاركه الثانى الاستماع والاستمتاع، تلتفتنى كلمات الأغنية، يعمل اللى يعجبه، أعلى خيله يركبه، الكلمات كعادة الأغانى الشعبية وكل الفنون البدائية، تقريرية، حادة، مباشرة كالشمس التى فوقى، لا خيال ولا مجاز ولا استعارة، فى منتصف الخاطرة بالضبط يكون أحد الشابين قد اقترب من واحدة من الفتيات الثلاثة، وبحركة مقصودة تماما، خبيرة، يمد إصبعه بلمسة تعرف هدفها، لمسة خاطفة لم تستغرق ثانية لكنى أستوعبها تماما كأنها أبد، يربد وجه الفتاة وأتوقع صرخة أو انفعالا أو شجارا أتأهب إليه مدفوعا بكل حواسى التى شحذتها الشمس، لكن ولا كلمة، ولا رد فعل من أى نوع، الفتاة تبتلع الحدث بكامله وتتأمل زميلتيها بحذر لتتأكد أن أحدا لم يلاحظ شيئا، يتجاوزنى الشاب فأفكر أن أضربه أو أشتمه أو أتشاجر معه أو أتخذ أى رد فعل من أى نوع، أنظر للفتاة ثانية وأفكر أن أفضل رد فعل ربما يكون هو الصمت بالفعل، يظهر ميكروباص بغتة فينتشلنى من الموقف لأقفز راكبا فيه، أحاول تناسى الموقف بكامله ولكنى أدرك أنه سيبقى فى ذاكرتى لفترة طويلة قبل أن أنساه.

8. لوليتا بولكوفا

أول كلمة حب

١

الشيء المميز فى فن الباليه والذى يختلف فيه عن غيره من الفنون هو قانونه فى الحفاظ على الجمال طوال الوقت، تقديس الشرط الجمالى والتمسك به من أول مشهد لآخر مشهد، طبيعة الباليه المثالية للغاية – وهو ببساطة اجتماع فنين تجريدين تماما هما الموسيقى والرقص – يزيل عنه أى أثر للواقعية وبالتالى لا تجد فيه مطلقا ملامح خشونة الواقع أو أى اضطرار للقبح كما يحدث فى فنون أخرى، كل المناظر فى الباليه جميلة، زاهية وملونة ومرسومة بأناقة حتى وإن كان موضوعها ليس كذلك، تذكر مثلا مشهد المشاجرة فى زوربا أو مشهد الأم الفقيرة وهى تكنس الساحة فى باليه جيزيل، ربما تفسر لنا هذه الجمالية (أو المثالية) فى فن الباليه الجرأة فى الجدل حوله والتحرج من تحريمه، الجرأة التى لا تأتيك وأنت تجادل فى الرقص الشرقى مثلا، المقارنة بين الباليه والرقص الشرقى مقارنة مغرية للغاية، الباليه هو العلاقة القائمة بين الجسد والفراغ، البطل هو الفراغ المحيط بجسد الراقصة وليس الجسد ذاته، بينما الرقص الشرقى هو العلاقة القائمة بين أجزاء الجسد وبعضها، البطل هو الجسد والراقصة الماهرة – بحسب تعريف تحية كاريوكا فى أحد الحوارات – هى التى ترقص فى أضيق مساحة ممكنة، الرقص الشرقى تجسيد للحس والباليه انعتاق منه، الرقص الشرقى سطوة المتناهى والباليه إطلالة على اللامتناهى. هذا تأكيد للنسبى وذاك إشارة

نحو المطلق، تتعدد المعانى وتتعارض حتى وإن كان الرقص هو الرقص، وحتى وإن كان الجسد هو الجسد.

٢

بين الحنين والإشفاق أتأمل الكراسة التى كتبت فيها الكلام السابق وأبتسم. كانت هذه هى نوعية الخواطر التى كنت أكتبها وأنا فى سنة الامتياز، السنة التدريبية فى حياة الطبِيب والتى لا يتدرب فيها على أى شىء. أتأمل الصفحات التى تحوى هذا الكلام بسخرية ورثاء للفترة التى كنت أكتب فيها كلاما من نوعية "متناهى" و"إطلالة" و"علاقة بين جسد وفراغ"، الفترة التى كنت أنهمك فيها فى ارتداء دور المفكر المعتزل كرد فعل طبيعى لعدم تكوين علاقة عاطفية، أى علاقة. طفلٌ خرج من مدرسة غير مشتركة ودخل قصر العينى بطبيعته المحافظة وأحب بنتين فى صمت لتتزوج كل منهما بعد أيام قليلة فيتأكد أن ذوقه جيد وأن حظه ليس كذلك، ثم تغمره المياه الإسلامية فيصير كل همه معرفة الفرق بين الإخوان والسلفيين وجماعة الدعوة التبليغ، طفل من الطبيعى أن يصل لسنة الامتياز دون أن يكون تجاوز مرحلة الحب عن بعد والحب من طرف واحد ودون أن يكون قد قال كلمة أحبك ولو لمرة واحدة، ومن الطبيعى تماما أن يدارى خجله فى القراءة والكتابة واعتزال زملائه، وأن يلهو بكتب الفلسفة وبما فيها من الأسماء الكبرى بينما هو فى حقيقة الأمر متعطش للتجربة، للمعرفة، متعطش للحب الذى يقرأ عنه ولا يراه، يشاهد نظرة ترنو بها بنت لولد فى الجامعة، فى الشارع أو فى محطة المترو فيسال نفسه كيف يمكن أن تنظر لى بنت، أى بنت، هذه النظرة.

كنت صبيا خائفا، وليعافيك الله من اجتماع الرغبة والخوف، خائف أن أدخل فى علاقة وخائفا أن أفشل فى علاقة وخائفا من كل شىء، كنت كثيرا ما أتساءل بينى وبين نفسى أسئلة ساذجة، مثلا، فى أى مرحلة من العلاقة العاطفية ينبغى أن يصرح الرجل للمرأة بكلمة الحب، متى يتجرأ ليمسك يدها وبماذا يشعر عندما يفعل، تخيل معى إذن صبيا فى هذه المرحلة كيف تكون الصدمة الحضارية التى تحدث له فى أول أيام انتدابه لدار الأوبرا المصرية كطبيب امتياز ليجد نفسه فى غابة من راقصات الباليه، قبيلة من الجميلات الروسيات تحيط به وهو بعد عصفور لم ينبت له فى دنيا النساء ريش.

٣

لم يكن مطلوبا منى أى شىء حقيقى فى فترة الانتداب تلك، كل المطلوب هو التواجد فى حالة حدوث أى مشكلة صحية وتحويل الخطير منها لأخصائى (غالبا أخصائى عظام)، كنت أقوم بإمضاء الحضور لدى الموظف الذى يأخذ إمضاء الأطباء ولا شىء بعد ذلك، ربما أقرأ قليلا وربما أتمشى فى حديقة الأوبرا الواسعة، أتأمل تمثال عبدالوهاب (ولم يكن تمثال أم كلثوم فى المدخل قد وضع بعد) وعندما تأتى الثانية عشرة تبدأ بروفات الفرقة التى تزور مصر للمرة الأولى. كنت أريد حضور البروفات بالطبع واستغرقت ربع ساعة حتى يفهم مصمم الرقصات أننى أريد الحضور معهم، الرجل وافق فى بساطة وترحيب هو يؤكد لى بإنجليزية رديئة أنه يريد معرفة رأيى فى رقصاتهم، عدم إتقان الإنجليزية أو الفرنسية شىء يثير التأمل لأنه قاسم مشترك تقريبا بين كل راقصي

الباليه العالميين الذين عرفتهم والذين يطوفون الدنيا طوال العام، الأمر أثار استغرابى فى البداية ثم تفهمته بعد ذلك بل وتقبلته من فنانين لا يستخدمون الكلام تقريبا ولا يحتاجونه واللغة لديهم هى الحركة والجسد. أجلس فى مقعد جاءنى به أحد العمال وأشاهد التدريبات، أغرق فى المشاهدة والتأملات ثم انتبه على دخولها المباغت، تدخل لوليتا فى منتصف البروفات، تلقى حقيبتها القماشية جوارى دون أن تنتبه لى وتقفز فى رشاقة فوق المسرح، وتغمغم عبارات بالروسية لمصم الرقصات - أخمن أنها عبارات اعتذار عن التأخير، تدخل لوليتا فأعرف أن ما فات من حياتى: القراءة والوحدة والحزن وانعدام التجارب العاطفية ومحاولات الكتابة ودخول كلية الطب وسنة الامتياز، كل شىء، كل شىء كان مجرد تدريب على هذه اللحظة المقدسة، تدور موسيقى تشايكوفسكى وتتخذ الأجساد وضع الاستعداد، وتبدأ الرقصات الحالمة.

ليدرك الله برحمته القلوب التى لم تعرف التجربة.

٤

فى الباليه توجد البطلة الفيديت التى يكتب اسمها على لوحة العرض ولكن هناك صفا من الراقصات هو الهيكل الحقيقى الذى بدونه لا يكون هناك عرض، صف من الراقصات يبذلن جهودا خرافية فى التدريب وحفظ الحركات، وأفكر كيف يبذل هذا الجهد العظيم من سن لا يتجاوز على أقصى تقدير الخامسة من العمر لتوضع أسماؤهن بخط صغير فى كتيب العرض الذى لا يلتفت له أحد، بل وربما لاتفرق بينهم حتى أثناء العرض نفسه رغم أن صف الراقصات هذا يحمل العرض على كتفيه فى سبيل بطلة

لا يعرف المتفرجون غيرها ولا يميزون باقى الراقصات، أنا كنت أميزها، أميزها دون غيرها، لوليتا هى الثالثة من اليسار عند دخول الأمير على اليجعة البطلة، وفى المنتصف تماما فى المشهد الأخير الحزين، كنت أنتظرها فى ختام كل ليلة من الليالى العشر التى تتواجد فيها فى القاهرة وأتذكر كلام هيجل عن الجمال ومفهومه النسبى، ما الذى كان يميزك يا لوليتا عن غيرك من الراقصات. لا أعرف، ولا اعرف حتى لحظة كتابة هذه السطور هل أحببتك فعلا أن أننى كنت محتاجا أن أحب، محتاجا أن أشعر أن لى سرا كبيرا يحمينى من العالم. مثل أبله صغير قررت أن أقف وراء الكواليس وأراقبك أنت دون غيرك من الراقصات، أنبهر بكل شىء وأتوله فى كل شىء ولا أكتفى، أبتهج كالعشاق الصغار وأشعر بالحنين لحظة إمضاء الانصراف وأبكى فى البيت ككل العشاق الصغار، فى اليوم الثالث أتجرأ وأنظر لها نظرة تخصها وأحييها بهزة من رأسى فتحيينى بهزة مثلها وأحسن منها، فى اليوم الرابع أشير لها وأصفق مرتين فتبتسم وهى تنزل عقب انتهاء البروفات وأقرر فى اليوم الخامس من إقامتك فى مصر يا لوليتا ان أكلمك، اذهب إليك بوردة وأكلمك.

– كنت رائعة اليوم، برافو.

استخدم الإنجليزية والفرنسية بلا فائدة، أكتشف كم خسرت عندما لم أتعلم الروسية، لا يتبقى بين يدى إلا اللغة الأولى، لغة نزعنا عنها مفرداتها وتبقت لنا منها النظرة والإيماءة وتحريك الأصابع وهزة الرأس وما لا أدرك من الإشارات؛ لغة ما قبل أن يعلم ربك آدم الأسماء كلها ويعرضهم على الملائكة فيقولون سبحانك لا عام لنا. تشير لأصحابها فينصرفوا ونتمشى سويا – أنا وهى – حتى الخارج بلا سند من اللغة أو

الكلام، وأنا لا أصدق أننى أسير بجوار بنت، نتمشى ونتكلم سويا وربما نضحك، أتفكر فى المفارقة وأبتسم، من كان يقول أن أول بنت أمشى معها فى حياتى ستكون راقصة روسية ذات جسد مرسوم وبشرة شاهقة البياض وشعر لا أفهم كيف جاء أصفر هكذا، ولكنه رزق ربك، ومن يملك أن يمنع رزق ربك! أتكلم كأنى لم أتكلم أبدا فى عمرى.

- أنت جميلة جدا يا لوليتا
- Большое спасибо

- كان رقصك الليلة بديعا يا لوليتا
- Что вы скажете

- ليتك يا لوليتا لا ترحلين أبدا
- Я вас не понимаю

وأنا لا أعرف الروسية، وهى – ولله الحمد – لا تعرف ما أقول.

٥

ينشرح صدرى وينطلق لسانى، لا أحتاج فى مخاطبتها لهارون ففى جهلها بما أقول وزير من أهلى، أهلى الذين الذين ربونى تربية صارمة واختاروا لى مدرسة غير مشتركة وأدخلونى كلية الطب حيث البنات ترتدى الخمار وتقول إن شاء الله فى آخر كل جملة، لوليتا تسمعنى وتفهمنى ولا تفهمنى، تنظر لى بعينين فيها من الزرقة ما فيهما من

الحيرة وأنا أستغل فرصة لن تتكر فأتحرر من ربقة الخجل ومن كل قيد وأتكلم وأتكلم، نتمشى للتحرير ونأكل كشري وفول ونسير محاطين بنظرات حاقدة من الشباب في الشوارع، أغازل وامزح وألهو وأقول كل ما أريد، أنت جميلة يا لوليتا، أنت حلوة يا لوليتا، أنت قشطة بالعسل وبسبوسة بالبندق وزبادى بالفراولة، ربما يتسع هامش الوقت فأحكى لها عن كلية الطب أو يضيق فأشرح لها رؤيتى للإخوان المسلمين، أحكى لها عن الرواية التى أحلم أن اقتفى فيها اثر الجميلات، وفى يومها الأخير أقوم بما عزمت على فعله طوال العشرة الأيام السابقة، قبل صعودها للمسرح مباشرة، حفلتها الختامية وآخر تصفيق لها من الجمهور المصرى، أناديها فتتجلى فى عينيها نظرة دهشة لا تخفى وتقول بالروسية ما لا بد أن معناه، ماذا تريد الآن ؟، تتسارع دقات قلبى ويتضرج وجهى وأهمّ بالتراجع، ولكن لا مفر:

- أنا أحبك يا لوليتا...

وأصمت قليلا وأقول فى سرعة قبل أن يغشى على:

- أنا أحبك يا لوليتا، أحبك بكل ما فى وسع رجل أن يحب امرأة.

ولا أعرف ماذا دار فى رأسها لحظة قلت ذلك، هل علمت منطق الطير تهز رأسها لا أعرف شكرا لعبارتى أم انزعاجا من اندفاعى، وأكررها فى جرأة أعلم لن تواتينى ثانية.

- أنا أحبك يا لوليتا

وتبتسم فى رقة وتغيب عن عينى، تصعد مع زميلاتها وتدخل مع زميلاتها إلى خشبة المسرح. سرب من البجع يطوف بالبجعة التى سيعشقها الأمير والصيادون يصوبون السهام بينما أجلس أنا على الكرسى

لأراقبها، أنظر إليها وأكاد من طربى أن أدخل فأرقص معهم وآخذ مكان الأمير، أنظر لها للمرة الأخيرة ثم أنصرف، أستقبل الهواء البارد وأنا خارج ويتردد فى بالى على الباب الخارجى لدار الأوبرا المصرية قول مولانا جلال الدين الرومى، جميع الكائنات تبكى من ألم الفراق.

٦

كانت هذه هى أول مرة قال فيها طلال فيصل كلمة أحبك فى حياته، وأتساءل بعد مرور كل هذه الأعوام، هل أمرّ فى خاطرها ولو لمرة واحدة، تتساءل فيها بينها وبين نفسها عن هذا الصبى العجيب الذى أصر أن يكلمها بلغة لا تفهمها طوال مدة إقامتها فى مصر.

9. حكاية خيالية تماما

نحن فى مستشفى الباطنة، لماذا لا نلعب قليلا ؟

مستوحاة من حكايات حارتنا لنجيب محفوظ (حكاية ٣٢)

١

لنفترض أن هناك شخصا يدعى طلال فيصل، لنفترض أنه طبيب وأنه يمارس كتابة سيرته من آن لآخر وأنه - بالإضافة لذلك - يُحب الصلاة على النبى ويحترم الإخوان المسلمين ويعشق تأمل الجميلات عن بعد، لنفترض بعد ذلك أن هناك مطربة وليكن اسمها - مثلا مثلا - دوللى شاهين، لنفترض أن دوللى هذه لها جسد متفجر، استدارات مرسومة بعناية وثنيات مربكة وأكتاف هشة كالبسكويت وصدر جعله الله بهجة للناظرين. اللعبة من أولها لآخرها لعبة افتراضات لكن اللعبة انقلبت جد، كان طلال فيصل السابق ذكره جالسا أمام التلفزيون فى الدور السابع بمستشفى الباطنة عندما اقتحمت عليه المطربة — والتى أطلقنا عليها افتراضا اسم دوللى شاهين — خلوته، تغنى: "أنا زى أى بنت" لينقلب حاله رأسا على عقب، تمزج العربية بالفرنسية فيختلط عليه الزمن، تهتز فى حرفية فيذوب فى باطن الموجودات ويعرف أن مافات من حياته كان مجرد أكذوبة، تشتعل الرغبة فى وجدانه وتستحيل تصميما قاتلا غير مفهوم وغير مبرر، ينسى طلال فيصل الطب وكتب الشعر والموسيقى والكتابة والدنيا والآخرة ولا يتذكر إلا شيئا واحدا، أنه يرغب فيها، يرغب فيها ولا مفر.

٢

يذهب طلال إلى أحد معارفه، محرر فنى يجلس من آن لآخر على مقهى البورصة أو البستان وأحيانا يشرب البيرة فى الحرية، شخص ثقيل الظل ومترع بالادعاء لا يحبه طلال ولكنه يذهب إليه مدفوعا بالرغبة التى لا تقاوم، عدة عبارات ترحيب وتمهيد بلا معنى ثم يدخل فى صلب الموضوع :

- أريد رقم دوللى شاهين.

- لم؟

يبتسم طلال ولا يجيب فيهز المحرر الفنى رأسه متفهما ويقول فى لهجة غير قابلة للنقاش:

- ألف جنيه.

يشهق طلال من الصدمة، نبطشية الباطنة كلها لا تتجاوز مائة جنيه، يحاول أن يتفاهم معه ويستخدم مفردات مثل العشم والأصحاب وما أشبه لكن الصحفى يستمر فى شرب البيرة وكأنه لا يسمعه، يتمتم طلال بعبارات اعتذار وينصرف، وبعد أسبوعين من العمل المنهك فى القصر العينى وعدة مستوصفات رخيصة أخرى يتجمع فى يده المبلغ ويذهب ليجلس مع الصحفى الذى يخرج موبايله ببساطة ويمليه رقم المطربة، والتى اتفقنا أن اسمها دوللى شاهين.

٣

يتصل بالرقم عدة مرات ولا أحد يرد ويوشك أن يذهب للصحفى ليفتك به ويسترد الألف جنيه، بعد عدة محاولات يرد عليه صوت أنثوى ويسقط قلب طلال فى قدميه، صوت أنثوى واثق يقول "ألو" بعذوبة تهز قلبه من الفرحة، هل السعادة قريبة إلى هذا الحد، "الفنانة دوللى شاهين؟" يسأل فيجيب الصوت الأنثوى ،" لا يا افندم أنا مديرة مكتبها، أى خدمة ؟" مُحبطا يجيب، كنت، كنت أريد أن أقابلها. تنفجر الرغبة ولا تعرف حدا والصوت الأنثوى يقول بلهجة قاطعة كالسيف، عشرة آلاف جنيه. لا تسأله عن تفاصيل ولا تسأله عن مقصد اللقاء لكنها تلقى فى طريقه بعقبة لا يعرف كيف يتجاوزها. طلال – بطل قصتنا المفترض – يعود إلى المقهى ويبدأ اتصالاته بمعارفه من الصحفيين والمثقفين، يحاول التقاط أى سبوبة ثقافية تمكنه من تجميع المبلغ المطلوب، يبدأ فى سبيل المبلغ بفعل كل ما كان يرفضه من قبل، العمل فى جرائد عمانية وكويتية وكتابة أخبار عن الدعم القطرى للثقافة والفنون، ترجمة مقالات لمنظمات أجنبية مشبوهة لتشويه صورة الإسلام، عرض كتب لمواقع إلكترونية تدعمها حكومات عربية لتحسين صورة الإسلام، تأليف أغنيات لمطرب سكندرى مغمور يحلم بمنافسة عمرو دياب، الكتابة لا تتوقف وعمله فى القصر العينى يقف جوار كل هذا كالجبل الراسخ وطلال لا يكاد ينام وكلما غلبه الإرهاق تتمثل له – من أطلقنا عليها افتراضا – دوللى شاهين فيقوم من جديد، بعد شهرين ونصف تقريبا يكون وزنه قد نقص عدة كيلوجرامات وروحه تسربت إليها الثقوب لكن المبلغ المطلوب كان قد

تجمع، يتصل ثانية بالرقم وهو يمنى نفسه بنشوة اللقاء، يرد عليه نفس الصوت الأنثوى، يخبرها بأن المبلغ جاهز فتقول فى آلية، برافو عليك، خذ هذا الرقم واتصل به فورا.

٤

يتصل بالرقم المذكور فيرد عليه صوت ذكورى غليظ يعطيه عنوان مكتب فى شارع شهاب ويطلب من أن يحضر الأمانة، يغلق الخط دون أن ينتظر منه ردا، يذهب طلال للموعد ويجلس مع الرجل الذى يرتدى ملابس أنيقة وله ملامح أوروبية شديدة الوسامة، يأخذ النقود ويعدها بسرعة وحرفية كأنه كاشير فى سوبرماركت، يتنهد فى ارتياح ثم يقول، بقيت خطوة واحدة، مدير العلاقات العامة وهذا لا يرضى بأقل من مائة ألف جنيه. سقط قلب طلال فى قدميه، والده سافر لعدة دول عربية استهلكت عمره ولم يحقق هذا المبلغ، يقول للرجل فى يأس، ظننت أن العشرة آلاف جنيه آخر المطاف، يبتسم الرجل فى إشفاق، لست مسئولا عن تصوراتك الخاطئة، يقول طلال فى ضراعة، المسألة بدأت بألف جنيه وتنتهى بثروة والسلسلة يبدو أنها بلا نهاية، يهز الرجل رأسه ويقول، مدير العلاقات العامة نهاية السلسلة وهذا آخر كلام. ينظر الرجل فى ساعته فيعتذر بطلنا المفترض ويقول لنفسه وهو خارج من المكتب، ضعت يا طلال وما كان كان .

٥

جملة اعتراضية: كيف يستمر بقاء القصر العينى فى ظل حالة التجاهل التام من الحكومة والانعدام الكامل للدعم بل وتناقص الميزانية كل عام عن العام السابق (لأن العميد يحصل على نسبة من الفرق فى الميزانية لو جاءت أقل من العام السابق له وبالتالى فالقصر العينى هو المكان الوحيد فى العالم الذى تتناقص ميزانيته فى كل عام باستمرار)، الكلمة السحرية هى الـDonations وترجمتها بالعربية: التبرعات، الكلمة شائعة على لسان النواب والمدرسين المساعدين؛ حين نكون فى احتياج لشىء معين أو لمساعدة حالة لا تملك ثمن إجراءات الفحص أو الدواء، التبرعات التى يجىء اغلبها من أساتذة كبار أو من أثرياء يقدرون قيمة قصر العينى ويعرفون دوره فى حياة المصريين. طلال يعرف كل هذا ويعرف المكان الذى يحتفظون فيه بالنقود السائلة والنائب الذى يحتفظ بالكريدت كارد الخاص بحساب التبرعات، ينطلق إليه فى سكن النواب فى الدور الثامن فى مبنى السموم، كلمة أو اثنتين، وفى غمضة عين يتناول زجاجة من على المكتب ويهوى بها على رأس زميله بوحشية، تتناثر قطع الزجاج وقطرات الدم، يفتش جيوبه وهو يبكى وجسده كله يرتعش، ينطلق جريا على السلم وليس ثمة مفر آخر، يتصل بمكتب شارع شهاب ويأخذ عنوان مدير العلاقات العامة، الوقت ضيق والخطوات مضطربة والنقود جاهزة ويجد طلال نفسه بالفعل بين قدميها، قدمى المطربة التى اتفقنا – وإياك أن تنسى – أن اسمها دوللى شاهين.

٦

يقول الرواة أن طلال دخل حجرتها كمن يدخل الملكوت، وبين النشوة والإنهاك ارتمى تحت قدميها وما يدرى إلا وهو يبكى ويقول لها:

- تخيلى، نبطشية النائب فى قصر العينى باثنين وثمانين جنيها فقط.

وتشرق روحه بالصفاء فيقول لها وهو ينظر فى عينيها :

- لقد ارتكبتُ جريمة قتل فى سبيل الوصول إليك

تبتسم ابتسامة ساحرة، تشده من أذنيه مداعبة، وتقول:

- يا كذاب، إنها مجرد قصة مسلية تصلح لليالى الشتاء، كلها مجرد تخيلات وافتراضات، لا أكثر ولا أقل.

وتمسح رأسه بحنان فيعرف أن الوقت قد حان ليعود للقصر العينى من جديد.

10. أول أيام النيابة فى قصر العينى

الجميلة تزورنى ليلا فى غفلة من الرقباء!

لا أعرف كيف حدث ذلك لكن فى مايو ٢٠٠٩ تم تعيينى نائبا بمستشفى جامعة القاهرة. لم أدرس الطب عن رغبة ولم أكمل طريقى فيه عن اقتناع ولكنى هاهنا، جالسا أمام جهاز الأشعة المقطعية أجلس أنا والفنىّ، فنىّ الأشعة متمدد فى الكرسى يكاد ينام، وأنا أقرأ فى ديوان ابن الرومى تسلية لنفسى وانتظارا لانتهاء النبطشية الليلية التى تأبى أن تنتهى، تقتحم علينا الليل أم تصطحب بنوتة صغيرة، تناولنى الأم ورقة الإشارة التى تتضمن الفحص المطلوب: أشعة مقطعية بالصبغة على البطن والحوض، أضع إمضائى على الورقة وتبدأ الممرضة فى تحضير البنوتة التى يبدو من بسمة عينيها أنها شقية، حقنة الصبغة فى الذراع والانتظار للحظات، ينزلق بصرى على الأم بسرعة فأحترم الذكاء الجينى للبنت الذى جعلها تأخذ ملامح والدتها (الهانم رغم ملابسها البسيطة) كاملة غير منقوصة، يحيطنى الجمال بفروق توقيته بشىء من البهجة ويستولى على دور الشخص المتصالح مع نفسه فأقرر أن أداعبها قليلا (البنوتة وليس الأم)، أفتح ديوان ابن الرومى وأقرأ بصوت مدرسى مرتفع:

فتاةٌ من الأتراك ترمى بأسهم ..

يصبن الحشا فى السلم لا فى المعارك

تنفجر الصغيرة فى ضحك طفولى جذاب، أزم شفتى وكأنى لا أهتم بضحكها وأواصل القراءة فى تقعر وبنغمة شيخ أزهرى قديم:

سبايا إليهن استباء عقولنا ..
مماليك ملكن اقتدار الممالك

تُواصل – وقد غاب عنى اسمها – الضحك والكركعة الصافية، ضحك الأطفال الرنان الذى لا شية فيه، الأطفال لا يعرفون الابتسام، لا يعرفون المجاملة للنكتة السخيفة، إما أنك جذاب وسأستمر فى اللعب معك وإما أنك ممل وثقيل وسأنصرف عنك فورا. خطفت عينى نظرة ثانية من الأم قبل أن تصيح المرضة بصوت أجش لدخول البنت غرفة الأشعة، أشير لها ملوحا بيدى كأننا فى رحلة فتشير بإصبعها مهددة وهى تقول آمرة:

- عاوزة الصور تطلع حلوة يا دكتور .

تستقر على السرير ويبدأ الفنىّ فى التصوير، فى حقيقة الأمر فنىّ الأشعة هو الذى يفعل كل شىء، تحضير المريض وتصويره وضبط الصور على الجهاز ونقلها للطبيب بعد ذلك، وبالممارسة يكتسبون خبرة طبية لا يستهان بها تجعل أطباء الأشعة فى بداية ممارسة المهنة – مثلى – يجلسون بجوارهم ليتعلموا منهم، تبدأ الصور تظهر أمامنا فى المقاطع المتعددة عندما يلتقط بصرى شيئا، أصيح فى حماس من أمسك شيئا يخاف أن يفلت منه:

- ورم فى المثانة، وأورام ثانوية منتشرة فى الفقرة العاشرة والحادية عشرة.

يهتف فىّ وهو يهز رأسه فى تشجيع:

- تمام تمام، الله عليك يا دكتور.

وأكتشف والبنوتة الصغيرة تنزل من على الجهاز حجم المأساة، وأشعر بالخجل من البهجة التى استولت على عندما استطعت التشخيص

دون أن أفطن لما وراء ذلك، ولا أستطيع النظر للأم وهى، تسألنى خير يا دكتور، فأقول مغمغما، خير ان شاء الله يا ماما، بينما تفلت الهانم الصغيرة من يد أمها لتناولنى ديوان ابن الرومى، فأقرأ لها كما كنت أقرأ، وتضحك كما كانت تضحك.

11. الآنسة آ،

لكل شيء إذا ما تم نقصان

١

قال مجنون ليلى ذات مرة للرجل الذى تزوجها، متسائلا فى مرارة واستنكار:

بربك هل ضممت إليك ليلى .. قُبيل الصبح أو قبّلت فاها ؟!

٢

صار لى على هذه الحياة المرهقة الفاتنة ٣٠ عاما، اقتربت من نهاية فترة نيابتى وصرت على عتبة المدرس المساعد للأشعة التشخيصية بالقصر العينى، لا أزال أعزب ولا أزال اقتفى اثر الجميلات، كل يوم، فى تمام الثامنة صباحا أكون فى مكتب الإدارة أوقع بالحضور، أصعد بعدها إلى القسم، أرتدى البالطو الأبيض فى غرفة ٢٤، أحكم إغلاق أزراره علىّ، شخصيتى الحقيقية لا مجال لكشفها هنا، ربما كنت مثقفا أو موهوبا، ربما كنت كاتبا رائعا، بل وربما كنت نجيب محفوظ القادم، لكن هذا لايعنى فى قسم الأشعة شيئا ليس فى كلامى هذا لوم ولا عتاب ولا اعتراض، اللهم لا اعتراض، لقد تصالحت من زمن، زمن طويل، على أن أجعل ما لله لله وما للقصر العينى للقصر العينى، توقفت مثلا عن اصطحاب أى كتب غير طبية وأنا ذاهب للمستشفى، نسيت الديوان الذي أصدرته عقب تخرجي ولم يأبه له أحد، وامتنعت عن الاستشهاد بالشعر كما كنت أفعل في أول نيابتي أو التعليق بسخرية أو الكلام الذى يحمل معنيين،

علقت فوق وعيى لافتة مضاءة مكتوب عليها "الشغل شغل"، اعتبرت نفسى – بشكل ما – يحيى المنقبادى بطل فيلم أرض الخوف، رجل يؤدى مهمة خاصة وهو يعلم فى أعمق أعماقه أنه شخص آخر قادم من مكان آخر، وحين أخلع البالطو وأعود للبيت فى آخر اليوم، أشغل شيئا من الغناء القديم أو الموسيقى الكلاسيكية محاولا الحفاظ على الكاتب الذى يعرف أنه لن تكون هناك كتابة، أحاول الحفاظ على مشاعرى من التيبس، لا أزعم أن الأمر كان سهلا أو بسيطا، كان الشعور بالانفصام والتناقض قاسيا وسخيفا ، وكان أصعب ما فيه كان تدريب الروح على عدم الحنين، كنت إذا مسها طائف من الشوق هدهدتها بدندنة خفية لأغنية أحبها أو لنغمة شجية أرددها بينى وبين نفسى، حريصا ألا يسمعها غيرى فتشوه سمعتى وتنتشر بين التمريض تعليقات من نوعية (الدكتور الذى يغنى) أو (الطبيب الفنان) أو ما أشبه، كانت هذه هى حياتى وهذا هو نظامها، كنت قد تعايشت مع الصحراء فى روحى تماما ومع نفسى ووضعى ومهنتى وأحلامى المجهضة، فلماذا كان عليك أن تظهرى فى الأفق يا آنسة آ؟

٣

البنات فى القصر العينى متشابهات، سواسية كأسنان المشط، ست بيت تبحث عن زوج وطفل وبيت، ربما يتلاعب القدر فى تفاصيل الصورة بشكل أو بآخر، هذه من بيت ثرى وتلك تسكن فى الحوامدية، هذه لها صدر واعد وهذه لها مؤخرة لطيفة، قد تتغير التفاصيل لكن التغير أبدا لا يطال الجوهر؛ أفق ضيق وتفكير نمطى قديم. قد تختلف المظاهر لكن وراء

هذه المظاهر يكمن نموذج تفسيرى واحد أحد، لا بداية له ولا نهاية وغير قابل للانقسام، فتاة حصلت على الثانوية العامة بمجموع ضخم لتدخل كلية الطب، تفرح بالبالطو الأبيض وكلمة دكتورة وبادج الهلال على الزجاج الأمامى للسيارة (إذا كانت من أسرة في سقف الطبقة المتوسطة) البعض يكتفين بذلك وتبدأ مرحلة السعى للحصول على عريس بمستلزماتها المتنوعة من الميل والإمالة والكلام الرقيق المهذب والاعتناء بالمكياج - بدون مبالغة - والانتظام للصلاة فى مسجد الكلية، بينما يقرر البعض الآخر استكمال مسيرة التفوق، احتشام حقيقى ومذاكرة دائبة دائمة لا تكل ولا تفتر، ولتعرفنّهن أثناء سيرك فى القصر العينى من أول نظرة، جسد ست البيت الذى تحمله وراءها، الجسد الأمومى الممتلىء الذى لا يعرف عناية ولا هوسا بالرشاقة، البشرة القمحية الخالية من المساحيق والأظافر غير المطلية (لأن المانيكير ينقض الوضوء) الردود الساذجة والتساؤلات الحريمى، ربطة الإيشارب التى تجعلك واثقا أن صاحبتها تفضل من المطربين هانى شاكر. هؤلاء اللواتي فى نهاية المطاف، والحمدلله، يحصلن على نيابة ويتم تعيينهن فى الجامعة، منظر النائبة فى القصر العينى منظر بائس يستحق التأمل والتعجب والرثاء والإشفاق، قد يرى البعض فى كلامى شيئا من التنميط الساذج، قد تتهمنى بالسطحية أو بكراهية للمكان تجعلنى أكتب عن بناته بهذا الشكل، الغرض مرض يحجب صفاء الرؤية، دخلت هذا المكان رغما عنى وتفوقت فيه برا بوالدتى وتم تعيينى نائبا فى دعابة إلهية وفوجئت بحلم الكتابة القديم يذوى كالشعاع الواهن، أنا القائم فى مقام الاغتراب، وللمغترب أن يحن وأن يئن وأن ينشد الفرار من المكان، المكان الذى لم يخلق له ولكنه جاء

إليه عن طريق غلطة لا يجرؤ على إصلاحها، وفى هذه الأحول تلجأ الروح للعبة الاختزال، اختصار كل من حولك لنموذج ثابت واحد، تنميط فى ظاهره السخرية وفى باطنه المرارة، وهكذا كنت أفعل، أرى طبيبات القصر العينى سائرات فى طرقات المستشفى، فأردد بينى وبين نفسى ذات الكلام، صرت على عتبة أن أكون أستاذا، تزوج كل زملائى وأنا لا أزال أسخر فى باطنى من كل عرض بارتباط من إحدى الزميلات، تلك العروض التى يقدمها واحد من الساعين فى توفيق الرؤوس وما أكثرهم، طبيب بينهم لكنى لست مثلهم، أنا مبدع خالد لا تدركه يد الفناء، أحافظ على آداب اللياقة وأرد بذوق، أتجنب الغضب والتمرد كما فعلت طوال عمرى، وقد اطمأن قلبى إلى حال اغترابه، فلماذا كان عليك يا أمى أن تأخذينى من يدى وأنا صغير للمكتبة فأتعلم الكتابة والموسيقى والشعر وتذوق الجمال، ولماذا كان عليك أن تظهرى فى حياتى يا آنسة آ وتقدمى نفسك لى يوم استلام الأطباء الجدد لنياباتهم قائلة (وقاتلة) فى ابتسامة واثقة :

– دكتور طلال، على فكرة أنا أعرفك من زمان وقرأت ديوانك "الملائكة لا تشاهد الأفلام الإباحية"

وتضيف في عذوبة:

– ألن نقرأ لك شيئا جديدا؟

يا ربي! ذلك الديوان اليتيم الذى أصدرته فى مولد النشر الذى كان قائما أيامها ولم ينتبه له أحد، كيف تذكرته هذه العفريتة؟ كان الاختزال بنيانا أطمئن إليه فى رفضى للآخرين، الآخرين الذين لم ولن يفهمونى، فلماذا يا آنسة "آ" أتيت لتهدمى بنيان اطمئنانى ؟!

٤

الآنسة آ، همزة ممدودة تغنيني عن التصريح، لا أصرح باسمها لا خوفا ولا خجلا ولا استتارا ولا تورية لكن لسانى لا يقدرعلى ذكر اسمها مجردا، فلما تجلى للجبل جعله دكا، إنها هانم بامتياز؛ هي الطالبة المتفوقة، وهى المهذبة، بنت ناس بالمعنى المصرى للكلمة. لا يظهر ذلك فى ملابسها أو سيارتها مثلا بقدر ما يتجلى فى نطقها للإنجليزية، طريقة اعتذارها، انحناؤها لالتقاط شيء سقط منها على الأرض، تعاملها الراقى مع مرضى القصر العينى الذين يغرونك - حتى ولو كنت نبيا مرسلا - بالاستبداد، تقرأ جيدا، لم أكن أتصور يوما أنى سألتقى بفتاة تحدثنى بهذا العمق عن تطوير نجيب محفوظ لأدواته فى الستينات وتأثره بكافكا وبروست، إنني أتكلم عنها كما يتحدث شخص لوالدته محاولا إقناعها بعروسة، أليس كذلك؟ ولكن كيف أفعل وقد أزهرت فى صحراء روحى كعود نعناع أخضر، لأول مرة يحدث فى نفسى هذا التوافق، كشفت عن بصرى غطاءه فإذا كل شيء بستان من المشاعر ومهرجان من الألوان، المرضى، الأطباء، الأساتذة، أصبحت أرى فى كل ما أرى الإنسان، تبدلت المرارة عطفا، اختفت الكراهية ولم أعد ألجأ للاختزال والسخرية، عدت للكتابة بشكل حقيقى بعد أن أيقظت مناقشاتى معها شيئا خامدا، وهى تتمتع بوعى عميق يندر أن تجده فى امرأة لدينا، ويبدو أننى كنت مفضوحا لدرجة أن أمى قالت لى يوما وهى تودعنى على الباب مبتسمة:

- وجهك صار منورا، يبدو أننى سأسمع منك أخبارا حلوة قريبا .

٥

الدكتور محمود الزيات كان الأول على دفعتى. إذا كان الاسم قد أوحى لك بشخص سخيف ولزجٍ فأنت على حق تماما، هو نموذج لطالب الطب الكريه الذى لم يفعل شيئاً فى حياته غير الحفظ والصم مثل الآلة الغبية، يحلق راسه ولحيته مثل ضباط الجيش ويتملق أعضاء هيئة التدريس بشكل مقزز مثير للغثيان، حريص على الصلاة بنتظام، يخرج من حمام القسم مبلولا كالدجاجة قبيل الذبح ليعرف الجميع أن سيادته على وشك لقاء ربه، يجمع حوله مجموعة من الأطباء الصغار والعمال فى وصلة نفاق كريهة على سجادة تم إعدادها تقربا للعزيز الجليل، فلماذا يا آنسة آ قبلت بالزواج منه، ولماذا ظهرت أجمل ظهور إن كنت ستختفين أبشع اختفاء، كنت أقلب فى الدعوة التى وزعوها علينا متسائلا فى مرارة، هذا الوعى وهذا الثقافة وهذه الرقة، هل ستكون غدا بين ذراعى شخص مثل هذا البغل، هل ستتركين له جسدك، تنجبين منه أطفالا وتسافرين معه للإمارات وتعودين مكتنزة بالدهن والمال والهدايا. هل ترانى كنت أتوهم منذ البداية ما ليس فيها أم أننى كنت متعطشا للحب فرأيت سرابا حتى إذا جئته لم أجده شيئا، كأنى سقطت معها فى فخ التأويل، وآه فى الحب من فتنة التأويل .

12. المدام، إن شاء الله

ختام السيرة، هو أولها.

الثالثة والثلاثون؟ فعلا؟ أحثّ خطوتى خارجا من باب مستشفى المنيل، الباب الخلفى للقصر العينى، خطوات قليلة وأصبحُ على كوبرى الجامعة، كم من خطوة أنفقتها على هذا الجسر، العاشقون الصغار يدا بيد، كل الأحبة اتنين اتنين وانت يا قلبى حبيبك فين، حصلت على الدكتوراه، الشهادة التى تُمنح فى قصر العينى ولا تؤخذ، تتسرب متع الحياة القليلة، تطوف بالذاكرة وجوه العابرين، العابرات، الجميلات العابرات. رحل من رحل، توفيت أمى من شهور، لم تفرح بالدكتوراه، لم تفرح بزواجى، أفلتت منى قبل أن أحقق لها ما كانت تريد، طاوعتها مرة أو اثنتين فى جلسة زواج صالونات لم تسفر عن شىء، لا، بل أسفرت عن توقفها - رحمها الله - عن الكلام فى الموضوع. أتسلى بذكر الهوانم: مانوليا، تمارا، لوليتا نابوكوفا، فاتن حمامة، أمى، رحم الله الجميع أحياء وأمواتا.

فى آخر كوبرى الجامعة، أهبط السلم المُفضى لشارع النيل، حيث ركنت سيارتى، أهبط السلم فى تمهل، أسير خطوات نحو السيارة، يسيطر على شعور غامض ملحّ، أستدير يمينا، ألتقى بنظرات باسمة، جميلتان متشابهتان تقفان فى الناحية الأخرى، أتعرف على إحداهن وأهتف رغما عنى:

- مس هالة...

أعبر الشارع وأصافحها فى حرارة، الهوانم لا تدركهن الشيخوخة. تجف البشرة قليلا، تظهر التجاعيد هنا أو هناك، يمتلىء الجسد قليلا وربما تتناثر بعض الشعرات البيضاء، لكن الشيخوخة، لا. تتدفق السلامات والسؤال عن الحال، تُذكر مشاهد قديمة لا يطويها النسيان والاستفسار عن أحباب لا نعرف لهم مكانا، وحين أخبرها أننى مدرس بالقصر العينى وأننى حصلت على الدكتوراه من شهور قليلة، تقول فى ابتسامة عذبة.

– يا سلام، يعنى لدينا الآن واسطة.

وتشير بفخر لابنتها الواقفة فى جوارها:

– الدكتورة يارا، بنتى، أولى طب هذا العام.

وتضيف فى بساطة آسرة:

– لن أوصيك عليها إذن.

وأختلسُ نظرة للهانم الصغيرة الواقفة جوارها، ويمتلىء قلبى برحيق الأمل.

الفهرس

1. مس هالة ٧

فى مديح الهوانم

2. مانوليا ١٣

طوبى للعاشقين على حافة الصمت

3. تمارا نصر الدين ١٩

حكاية من البوسنة والهرسك!

4. بسنت ٢٥

من فينا بسنت؟

5. صفية وآسر صالحين ٣٣

ما هو المرادف العربى لكلمة: Mediocrity

6. لا أعرف اسمها ٤٣

حكاية من تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة

7. حكاية هامشية تماما ٥٣

ذكر ما جرى للجميلات الثلاث أمام مستشفى أبو الريش

8. لوليتا بولكوفا ٥٧

أول كلمة حب

9. حكاية خيالية تماما ٦٧

نحن فى مستشفى الباطنة، لماذا لا نلعب قليلا ؟

10. أول أيام النيابة فى قصر العينى ٧٥
الجميلة تزورنى ليلا فى غفلة من الرقباء!
11. الآنسة آ، ٧٩
لكل شىء إذا ما تم نقصان
12. المدام، إن شاء الله ٨٧
ختام السيرة، هو أولها.

تجليات أدبية

أوقفني موقف التأهب وقال لي، اكتب. أقول يا رب (وهو أعلم بما أقول) كيف أكتب وأنا على ما أنا عليه، يقول اكتب. أقول يا رب (وهو أعلم بما أقول)، كيف أقتفي أثر الجميلات وأنا حتى الآن لم أدخل في علاقة، أي علاقة. يقول اكتب، أقول يا رب. كيف أكتب رواية عن الجميلات وأنا - وأنت أعلم - لم أمارس الجنس حتى الآن، ولا مرة واحدة. يقول اكتب. أنت عليك الكتابة وأنا على البلاغ. ألم تقرأ ما كتبه عبدي أينشتين من قبل. الخيال أقوى من المعرفة.

***

فتنت بهذا الكتاب الصغير الجميل، وامتلأ قلبي بالسرور أن أديبا مصريا جديدا ظهر ولمع وعلى وشك تحقيق نجاح جماهيري.

كنت قد قرأت لـ طلال فيصل من قبل ديوانا صغيرا من الشعر أعجبت به أيضا، فأقبلت على روايته الجديدة بأمل أن يتأكد إعجابي، فحدث ما توقعت وأكثر. فتنني في الكتاب عدة أشياء: الجرأة في التعبير عن المشاعر الحقيقية، مهما يكن التعبير عنها غير مألوف، وإحساس عميق بالمشاعر المشتركة بين الناس رغم تظاهر الكثيرين بتفردهم واختلافهم عن الباقين، والقدرة على نقل صورة حقيقية لمشاعر شريحة كبيرة من الصبية والشباب المصريين (أم أقول كلهم؟) نحو الجنس الآخر، وما تخلقه التقاليد المصرية من حواجز مانعة للتعبير العفوي عن هذه المشاعر، وخلال كل ذلك مرح وخفة ظل وسخرية لا تشوبها أي مرارة بل وتختلط بتعاطف حقيقي مع الناس. كل هذا جعلني أقرأ الكتاب بشوق حقيقي للعبارة التالية ثم للفصل التالي، وبسرور لم ينته بانتهاء الكتاب، مما قوى في نفسي الأمل بأن هناك في مصر اليوم شبابا موهوبا سوف يصنعون بلا شك نهضة ثقافية قريبة.

د. جلال أمين
كاتب ومفكر مصري

قصة رائعة. وبعض أجزائها يمثل التاريخ سري للحركات الإسلامية في مصر وواقعها الاجتماعي.

جون كالفرت
كاتب أمريكي ومترجم سيد قطب للإنجليزية

الغلاف: صلاح المر

4358
Disc 15.0

ميريت